صيد الخواطر

تأليف الإمام العلامة

أبي الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبد الله

الحنبلي البغدادي الظفري

المتوفى سنة ٥١٣ هـ

جمع وإعداد

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي



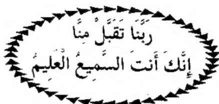
دار الإيمان

الإسكندرية

صيد الخاطر



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



رقم الإيداع
٢٠٩٠٠/٢٠٠٧

الترقيم الدولي
977-331-441-3



١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠١٠٥٤١١٩١٠ - ٠٢٠٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

صيد الخاطر

تأليف الإمام العلامة

أبي الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبد الله

الحنبلي البغدادي الظفري

المتوفى سنة ٥١٣ هـ

جمع وإعداد

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

دار القمة

لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي

فاكس: ٥٤٥٧١٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعينُه، ونَسْتَغْفرُه، ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنْفُسنَا، وَسَيِّئَات أَعْمَالنا، مَنْ يَهْده اللهُ فَلا مُضلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

أمَّا بعدُ: فمنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيَّ أَنْ حَبَّبَ إِلَيَّ الحَيَاةَ بَيْنَ مَطَاوي الكُتُبِ النَّافعَة، وَأَثْنَاء قَرَاءَتي كَانَتْ تَمُرُّ بي القطْعَةُ مِنَ الكَلامِ البَليغِ، الَّتي تَجْمَعُ بَيْنَ الإيجَازِ والإعْجَازِ، بَيْنَ المُتْعَةِ والفَائدَةِ.

وبَعْضُها تحملُ توقيعاتِ الإمامِ العَلاَّمة أبي الوَفاء بْنِ عَقيلٍ الحَنْبَليِّ - رَحمَهُ اللهُ - كَأَزْهَارٍ مُتَنَاثرَةٍ في حَدائقَ ذَات بَهْجَة [١]، فيهَا منْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ، اقْتَطَفَهَا العُلَمَاءُ عَنْ كُتُبِ ابنِ عَقيلٍ سيَّمَا «الفُنُونُ» إبَّانَ ازْدهَاره، وقَبْلَ أَنْ تَغْرُبَ شَمسُهُ، وَمَا غَرَبَتْ إلاَّ حينَ قَلَّ الاهتمَامُ بالْعلْمِ، وقَعَدَتْ هِمَمُ النُّسَّاخِ عَنْ نَسْخِ مئَاتِ المُجَلَّدَاتِ، وأَنَّى لَهُمْ نَسْخُ كتَابٍ لَمْ يُصَنَّفْ في الدُّنْيَا أَكْبَرُ منْهُ؟! [٢].

---

(١) قَدْ شَهدَ لابْنِ عَقيلٍ بالتَّفَنُّنِ في صناعة الكلامِ عُلماءُ أعْلامٌ: قَالَ شيخُ الإسلام ابْنُ تَيْميَّةَ - رَحمَهُ اللهُ - في «دَرْءِ تَعَارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» (٥ / ٦٠ - ٦١): «يوجَدُ في كَلامه - أي: ابْن عَقيلٍ - منَ الكلام البليغ ما هو مُعَظَّمٌ مَشكورٌ». وقَالَ العمادُ الأصْفَهانيُّ في كتابه «خَريدة القَصْر» (٣ / ٢٩): «وجَدْتُ - أي: لابن عقيلٍ - كَلامًا جَزْلاً، سَهْلاً، وأسلوبًا بديعًا رائقًا، ومنْهَاجًا قويًّا وَاضحًا». وَقَالَ ابنُ الجوزيِّ - رحمه اللهُ - كما في «الذَّيْلِ» (١ / ٣٢٤): «وكَانَ لَهُ الخَاطرُ العاطرُ». قُلْتُ: حَسْبُكَ بهَا شَهَادَةً، فلا يَعرفُ الفَضْلَ لأَهْله إلاَّ ذَوُوه، وَمَنْ شَهدَ لَهُ خُزَيْمَةُ فَهُو حَسْبُهُ.

(٢) قَالَ الذَّهبيُّ - كما في «الذَّيْلِ» (١ / ٣٤٤) عن «الفُنون»: «لم يُصَنَّفْ في الدُّنْيَا أَكْبَرُ منْ هَذَا الكتَاب». وقَالَ الإمامُ القَزْوينيُّ - كَمَا في «الذَّيْلِ» (١ / ٣٤٥) - عن بَعْضِ مَشَايخه أَنَّهُ قَالَ: «هو ثَمانُمائَة مُجَلَّدَة».

ولَعلَّ ذَلكَ كَانَ سَبَبًا في ضَيَاعِه - واللهُ أَعْلَمُ -[١] .

وَقَدْ بَقِيَتْ بَعْضُ تِلْكَ الأَزْهارِ في كُتُبٍ مُتفرِّقَةٍ، آثَرْتُ جَمْعَهَا في كِتَابي هَذَا، وسَمَّيْتُهُ «صَيْدُ الخَوَاطِرِ» .

وأَرَىٰ أَنَّ هَذَا العُنوانَ هُوَ الأَلْيَقُ؛ لأَنَّ جُلَّ مَا في «الفُنون» هُوَ عِبَارةٌ عَنْ خَوَاطِرَ، وَهَذَا مِنْهَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَلِكَ ابْنُ عقيلٍ نَفسُهُ، وبَعْضُ مَنْ نَقَلَ عَنْهُ .

قَالَ ابنُ عَقيلٍ - رَحِمَهُ اللهُ - : «فَمَا أَزَالُ أُعلِّقُ مَا أَسْتَفِيدُهُ مِنْ أَلْفَاظِ العُلَمَاءِ، وَمِنْ بُطُونِ الصَّحَائِفِ، وَمِنْ صَيْدِ الخَوَاطِرِ الَّتي تَنشُرُهَا المُنَاظَرَاتُ والمُقَابَسَاتُ في مَجَالِسِ العُلَمَاءِ، ومَجَامِعِ الفُضَلاءِ - طَمَعًا في أَنْ يَعْلَقَ بي طَرَفٌ مِنْ الْفَضْلِ أَبْعَدُ مِنَ الجَهْلِ؛ لَعَلِّي أَصِلُ إِلَىٰ بَعْضِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ قَبْلي»[٢] .

وَقَالَ - أَيضًا - رَحِمَهُ اللهُ - : «إِنِّي لا يَحِلُّ لي أَنْ أُضَيِّعَ سَاعَةً مِنْ عُمُري، حَتَّىٰ إِذَا تَعَطَّلَ لِسَاني عَنْ مُذَاكَرَةٍ، وَبَصَري عَنْ مُطَالَعَةٍ - أَعْمَلْتُ فِكْري في حَالِ رَاحَتي وَأَنَا مُسْتَطْرِحٌ، فَلا أَنْهَضُ إِلاَّ وَقَدْ خَطَرَ لي مَا أُسَطِّرُهُ»[٣] .

وَقَالَ الإِمَامُ أَبو الفَرَجِ ابْنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «وَكَانَ لَهُ الخَاطِرُ العَاطِرُ، والْبَحْثُ عَنْ الغَوَامِضِ والدَّقَائِقِ، وَجَعَلَ كِتَابَهُ المُسَمَّىٰ بـ«الفُنُون» مَنَاطًا لِخَوَاطِرِهِ وَوَاقِعَاتِهِ»[٤] .

---

(١) طُبِعَ مِنْهُ قِطْعَةٌ في مُجَلَّدَيْنِ في المَطْبَعَةِ الكَاثُوليكيَّةِ سنَة (١٩٧٠ من تاريخ النَّصَارَىٰ)، حَقَّقَهَا الدُّكتور / جُورجُ المَقْدسيُّ، وَقَد اسْتَفَدْتُ مِنْهَا.

(٢) «الفنون» (١ / ٧).

(٣) «الفنون» (١ / ١٢).

(٤) «الذَّيْلُ علَىٰ طَبقاتِ الحَنَابِلَة» لابن رجب (١ / ٣٢٤).

وأخيرًا: أسألُ اللهَ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ - بِأَسْمَائِه الحُسْنَىٰ وصِفَاتِه العُلْيَا أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي كُلَّهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وأَنْ يَغْفِرَ لِي ولِوَالِدَيَّ .

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وكتبه

أبو عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي

دار الحديث العامرة بِمَعْبَر حرسها الله

ترجمة أبي الوفاء بن عقيل (١)

هُوَ الإِمَامُ العَلاَّمَةُ البَحْرُ شَيْخُ الحَنَابِلَةِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ عَقِيلِ بْنُ أَحْمَدَ البَغْدَادِيُّ، الظَّفَرِيُّ، المُقْرِئُ، الفَقِيهُ، الأُصُولِيُّ، الوَاعِظُ، المُتَكَلِّمُ، أَبُو الوَفَاءِ، أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَعْلامِ، وَشَيْخُ الإِسْلامِ(٢).

وُلِدَ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَثَلاثِينَ وَأَرْبَعِمائَةٍ، كَذَا نَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ نَاصِرٍ، والسِّلَفِيُّ، قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ: «وَرَأَيْتُهُ بِخَطِّه»(٣).

---

(١) أَخْبَارُهُ في: طَبَقَاتِ الحَنَابِلَةِ (٣/٤٨٢)، ومُخْتَصَرِهِ (٤١٣)، ومَنَاقِبِ الإمامِ أَحْمَدَ (٦٣٤)، والذَّيل عَلَىٰ طَبقات الحنابلة لابن رجب (١/٣١٦)، ومُخْتصر الذَّيلِ عَلَىٰ طَبقات الحنابلة لابن نصر الله (ص١٥)، والمقْصد الأرْشد (٢/٢٤٥)، والمنْهَج الأحْمَد (٣/٧٨)، ومُخْتَصَرِهِ «الدُّرِّ المُنَضَّدِ» (١/٢٣٧)، وخَرِيدة القَصْرِ «قِسْمُ شعراء العراق» (٣/٢٩)، ومُعجم ابن عساكر (٢/٧٣٦)، والمُنْتظم (٩/٢١٢)، والكامل في التاريخ (١٠/٥٦١)، ومرآة الزمان (٢/٦٩١)، وَمَعْرِفَة القُرَّاءِ الكبار (١/٤٦٨)، وسِيَر أَعْلامِ النُّبَلاءِ (١٩/٤٤٣)، وتاريخ الإِسْلام (٣٤٩)، وميزان الاعتدال (٣/١٤٦)، والعبَر (٤/٢٢٩)، وَدُوَل الإسلام (٣٤٩)، والإعلام بوَفَيَات الأعلام (٢١٠)، والمُعين في طبقات المحدِّثينَ (١٥٠)، والمُسْتَفَادُ مِنْ ذَيْلِ تاريخ بَغْدَاد (١٩٢)، والوَافي بالوَفَيَات (٢١/٣٢٦)، وَمرآة الجنان (٣/٢٠٤)، والبداية والنِّهاية (١٢/١٨٤)، وغاية النِّهاية (١/٥٥٦)، وتَبْصِير المُنْتَسِب (٣/١٠٦١)، ولسان الميزان (٤/٢٤٣)، والنُّجوم الزَّاهرة (٥/٢١٩)، وطبقات المُفسِّرين للدَّاوُديِّ (١/٤١٧)، وشَذَرَات الذَّهَب (٤/٣٥)، والمدْخَل لابن بَدْرَان (٤١٦)، وَجَلاء العَيْنَيْن (٩٩)، والمُطْلع عَلَىٰ أبواب المُقْنع (٤٤٤).

(٢) ذَيْلِ طَبَقَاتِ الحَنَابِلَةِ (١/٣١٦)، والسِّيَر (١٩/٤٤٣).

(٣) ذَيْلِ طبقات الحَنَابلة (١/٣١٧).

شُيُوخُـهُ:

شُيُوخُ ابْنِ عَقيلٍ كَثيرونَ، وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ رَجَبٍ [١] عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:

- شَيْخي في القِرَاءَةِ: ابْنُ شَيْطَى[٢].
- وفي النَّحْوِ والأَدَبِ: أَبُو القَاسِمِ بْنُ بَرْهَان[٣].
- وفي الزُّهْدِ: أَبُو بَكْرٍ الدِّيْنَوَرِيُّ[٤]، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ زَيْدَانَ، وأَبُو الحَسَنِ القَزْوِينِيُّ[٥] - وَذَكَرَ جَمَاعَةً غَيْرَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ - .
- وفي آدَابِ التَّصَوُّفِ: أبو مَنْصُورٍ صَاحِبُ الزِّيَادَةِ العَطَّارُ[٦].
- وفي الحَدِيثِ: ابْنُ التَّوَّزِيُّ[٧]، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ بِشْرانَ، والعُشَارِيُّ، والجَوْهَرِيُّ، وَغَيْرُهُمْ.
- وفي الشِّعْرِ والتَّرَسُّلِ: ابْنُ شِبْلٍ[٨]، وَابْنُ الفَضْلِ[٩].
- وَفي الفَرَائِضِ: أَبُو الفَضْلِ الهَمْدَانيُّ[١٠].
- وفي الوَعْظِ: أَبُو طَاهِرِ بْنُ العَلاَّفِ[١١].

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/٣١٧ - ٣٢٠).

(٢) هو: أبو الفَتْحِ عَبْدُ الوَاحِد بْنُ الحُسَيْنِ البَغْدَاديُّ (ت: ٤٥٠هـ).

(٣) هو: الإمامُ العلاَّمَة النَّحْويُّ المَشْهُورُ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ عَليِّ بن بَرْهَانٍ العُكْبَريُّ (ت: ٤٥٦هـ).

(٤) هُوَ: مُحَمَّدُ بْن إبْراهيمَ القارئُ، نَزيلُ بَغْدَادَ (ت: ٤٤٩هـ).

(٥) هو: الإمامُ الفقيهُ عليُّ بْنُ عُمَرَ بْنِ الحَسَنِ (ت: ٤٤٢هـ).

(٦) هُو: مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُبَيْد (ت: ٤٦٨ هـ).

(٧) هُوَ: أَحْمَدُ بْنُ عَليِّ بْنِ الحُسَيْنِ (ت: ٤٤٢هـ).

(٨) هُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ بْنِ عَبْد الله بْنِ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ شِبْلٍ (ت: ٣٧٣ هـ)، لَهُ ديوانٌ سائر.

(٩) هُوَ: الشَّاعِرُ المَشْهُورُ المَعْرُوفُ بـ«صُرَّدُرّ»، اسْمُهُ عَليُّ بْن الحَسَنِ بْنِ عَليِّ بْنِ الفَضْلِ، لَهُ ديوانٌ مَطْبُوعٌ في (٢٣٨) صفحةً، (ت: ٤٦٥هـ).

(١٠) هُوَ: الإمامُ الفَرَضيُّ عَبدُ المَلِكِ بْنُ إبْراهيمَ بْنِ أَحْمَدَ الهَمْدَانيُّ (ت: ٤٨٩هـ).

(١١) هُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَليِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ أبو طَاهِرٍ العلاَّفُ البَغْدَاديُّ (ت: ٤٤٢هـ).

- وفي الأُصُولِ: ابْنُ الْوَلِيدِ، وَأَبُو القَاسِمِ بْنُ التَّبَّانِ.
- وفي الفِقْهِ: أَبُو يَعْلَىٰ، وأَبُو إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيُّ، وأَبُو نَصْرِ بْنُ الصَّبَّاغِ، وَأَبُو الطَّيِّبِ الطَّبَرِيُّ.

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَمِنْ مَشَايِخِي أَبُو مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيُّ، وَمِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الخَطِيبُ.

وَهَؤُلاءِ هُمْ أَئِمَّةُ عَصْرِهِمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عُلُوِّ هِمَّتِهِ - رَحِمَ اللهُ الجَمِيعَ - .

تَلامِذَتُهُ:

تَتَلْمَذَ عَلَىٰ الإِمَامِ أَبِي الْوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَمِنْ أَشْهَرِهِم:

١ - عُمَرُ بْنُ ظَفَرِ بْنِ حَفْصٍ الْمُغَازِلِيُّ (ت: ٥٤٢ هـ)[١].

٢ - الْمُبَارَكُ بْنُ كَامِلٍ البَغْدَادِيُّ المَعْرُوفُ بِابْنِ الخفافِ[٢].

٣ - مُحَمَّدُ بْنُ نَاصِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّلامِيُّ الْمُحَدِّثُ أَبُو الفَضْلِ (ت:٥٠٥هـ)[٣].

٤ - صَدَقَةُ بْنُ الحُسَيْنِ بْنِ الحَدَّادِ الفَقِيهُ الْمُؤَرِّخُ الحَنْبَلِيُّ (ت: ٥٧٣هـ)[٤].

٥ - سَعْدُ اللهِ بْنُ نَصْرِ بْنِ سَعِيدٍ المعروفُ بِابْنِ الدَّجَاجِيِّ الواعِظُ الحَنْبَلِيُّ (ت: ٥٦٤هـ)[٥].

---

(١) الذَّيْل لابن رجب (١/١٥٥، ٢١٤، ٣٠٣، ٣٣٩).
(٢) المرجع السابق (١/١٥٥، ٢١٤، ٣٠٣، ٣٣٩).
(٣) المرجع السابق (١/١٥٥، ٢١٤، ٣٠٣، ٣٣٩).
(٤) المرجع السابق (١/١٥٥، ٢١٤، ٣٠٣، ٣٣٩).
(٥) المرجع السابق (١/١٥٥، ٢١٤، ٣٠٣، ٣٣٩).

مُؤلَّفاتُه :

لابْنِ عقيلٍ مُؤلَّفاتٌ كَثيرةٌ في أصُولِ الدِّينِ، والفِقْهِ، والفُرُوعِ، والزُّهْدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ[١] .

وفيما يَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِ مُؤلَّفاتِه:

١ - الفُنُون، وهو مِنْ أكْبَرِ مُؤلَّفَاتِهِ، بَلْ لَمْ يُؤلَّفْ في الإسْلامِ مِثْلُهُ وَلا أكْبَرُ مِنْهُ.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وأكْبَرُ تَصَانِيفِه كِتَابُ «الفُنُون»، وَهُوَ كِتَابٌ كَبيرٌ جِدًّا، فِيْه فَوائدُ كَثيرةٌ جَليلَةٌ في الوَعْظِ، والتَّفْسيرِ، والفِقْهِ، والأَصْلَيْنِ، والنَّحْوِ، واللُّغَةِ، والشِّعْرِ، والتَّاريخِ، والحِكَايات، وَفِيه مُنَاظرَاتُهُ، ومَجَالِسُهُ الَّتي وَقَعَتْ لَهُ، وَخَواطِرُهُ، وَنَتَائِجُ فِكْرِه، قَيَّدَهَا فِيْه[٢] .

وَقَالَ أَبُو حَكِيمٍ النَّهْرَوَانِيُّ: «وَقَفْتُ عَلَىٰ السِّفْرِ[٣] الرَّابعِ بَعْدَ الثَّلاثمائة مِنْ كِتَابِ الفُنُون»[٤] .

وَقَالَ الحَافظُ الذَّهَبيُّ في «تاريخه»: «لَمْ يُصَنَّفْ في الدُّنْيا أَكْبَرُ مِنْ هَذَا الكِتَاب، حَدَّثَني مَنْ رَأَىٰ مِنْهُ المُجَلَّدَ الفُلانيَّ بَعْدَ الأَرْبعمَائَة»[٥] .

وقَالَ ابْنُ رَجَبٍ - رَحِمَهُ اللهُ - : أَخْبَرَني القَزْوِينيُّ قَالَ: «سَمِعْتُ بَعْضَ مَشَايخِنَا يَقُولُ: هُوَ ثَمَانمائَة مُجَلَّدَةٍ[٦]»[٧] .

---

(١) انظُرْ كتاب «الفصول في الآداب ومكارم الأخلاق» لابن عقيلٍ، تحقيق الشيخ عبد السلام السُّحيمي - حفظه اللهُ - (ص٢٠).

(٢) «الذَّيْل عَلَىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٤).

(٣) السِّفْر - بالكسر - : الكتاب الكبير، و الجمع أسْفار.

(٤) «الذَّيْل عَلَىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٤).

(٥) «الذَّيْل عَلَىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٤، ٣٤٥).

(٦) هَذَا الاضطرابُ في عَدد الأَجْزاء مردُّهُ - واللهُ أَعْلم - لاختلاف النُّسَّاخِ وَعَدَدِ أوْرَاقِ الأَجْزاء.

(٧) انظُرْ حَاشِيَة الذَّيل (١/٣٤٥) بتحقيق عبد الرحمن العُثيمين.

٢ - الفُصُولُ في الفِقْهِ، ويُسَمَّىٰ كِفَايَةُ المُفْتي، في عَشَرَةِ مُجَلَّدَاتٍ[١].

٣ - أَحَادِيثُ سُئِلَ عَنْهَا فَأَجَابَ[٢].

٤ - الإِرْشَادُ في أُصُولِ الدِّينِ[٣].

٥ - الإِشَارَةُ، و هو اخْتِصَارٌ لِكِتَابِ الرِّوَايَتَيْنِ والوجْهَيْنِ لهُ[٤].

٦ - الانْتِصَارُ لأَهْلِ الحَدِيثِ[٥].

٧ - التَّذْكِرَةُ في أُصُولِ الفِقْهِ[٦]. مُخْتَصَرٌ عَلَىٰ قَوْلٍ واحِدٍ في المذهب، مَخْطُوط[٧].

٨ - تَفْضِيلُ العِبَادَاتِ عَلَىٰ نَعِيمِ الجَنَّاتِ[٨].

٩ - تَهْذِيبُ النَّفْسِ[٩].

١٠ - الجَدَلُ في الفِقْهِ، مَطْبُوعٌ في مَجَلَّةِ الدِّرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ بالمَعْهَدِ الفرنسيِّ بدمَشْقَ سَنَةَ (١٩٦٧م) بِعِنَايَةِ جُورج مَقْدِسيّ، وأَعَادَ تَحْقِيقَه وَنَشْرَه الدُّكْتور عَليٌّ العميرينيُّ سنة (١٤١٨هـ)، وطُبِعَ بِمَكْتَبَةِ التَّوْبَةِ في الرِّيَاضِ.

---

(١) ذكَرَهُ ابن رجب في «الذّيل» (١/٣٤٧)، وهو مخطوط، توجد منه قطعةٌ في المكتبة الظاهريَّة برقم (٦٣) فقه حَنْبَليٌّ، وقطعةٌ أخرىٰ في دار الكتب المصْريَّة برقم (٢٥) فقه حَنْبليٌّ.

(٢) «الذَّيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٧).

(٣) «الذَّيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٥)، وتوجد نسخةٌ في الظَّاهريّة برقم (٨٧) كما في كتاب «جزء في الأصول» لابن عقيلٍ (ص٢٣)، وهو لسليمان العمير.

(٤) «الذَّيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٥).

(٥) «الذَّيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٥).

(٦) «الذَّيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٥).

(٧) توجد منه نسخة في الظَّاهرية برقم (٨٧)، ذكر ذلك سليمان العمير في مقدِّمته لجزء في الأصول (ص٢٣).

(٨) «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٥).

(٩) «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٦).

١١ - جُزْء في الأصولِ، مَطْبوع (١).

١٢ - نفي التَّشْبيه(٢).

١٣ - جُزْء في الوقف إذا خَرِبَ وَتَعَطَّلَتْ مَنَافِعُهُ(٣).

١٤ - الرِّوَايَتَيْنِ والوجهين(٤).

١٥ - رُءوس المسائل(٥).

١٦ - شرح مُخْتَصَرِ الخرقيّ(٦).

١٧ - شمائلُ الزُّهَّادِ(٧).

١٨ - عُمْدَةَ الأَدلَّة(٨).

١٩ - الفِرَقُ(٩).

٢٠ - الواضِحُ في أُصُولِ الفقْه(١٠).

٢١ - فُصُولٌ في الآداب ومكَارِمِ الأَخْلاقِ(١١).

---

(١) بتحقيق د/ سليمان العمير عن دار السَّلام بالرِّياض (١٤١٣هـ).

(٢) ذكره ابن رجبٍ في «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٧).

(٣) «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٦).

(٤) انظر «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٧).

(٥) انظر «المُطْلع» للبعليّ (٤٤٥).

(٦) انظر «شرح الزركشيّ عَلَىٰ مختصر الخرقيّ» (١/٤٤)، تحقيق عبد الله بن جبرين.

(٧) ذكره البَغْدَاديُّ في هَدِيَّة العارفين (١/٦٩٥)، و«إيضاح المكنون» (٢/٥٤).

(٨) ذكره ابن رجبٍ في «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/٣٤٧).

(٩) ذكره الزركليُّ في «الأعلام» (٤/٣١٣).

(١٠) ذكره البعليُّ في «المُطْلع» (ص٤٤٥)، وابنُ رَجب في «الذيل على طبقات الحنابلة» (١/٣٤٧)، وذكر الدكتور سليمان العمير: أنّ الكتابَ حَقَّقَهُ عَددٌ مِنَ الدَّارسين بجامعة أم القرىٰ، ولَمْ يُطْبَعْ.

(١١) طُبِعَ طبعةً طَيِّبَةً في دار الإمام أحمدَ بتحقيق الشيخ الدُّكتور عبد السَّلام بْنِ سالمِ بن رَجَاءٍ السُّحَيْميِّ - حفظه الله - ، وقَدِ استَفَدْتُ منه، فجزاه اللهُ خيراً.

٢٢ - الكِفَايَةُ في أُصُولِ الدِّينِ[١].

٢٣ - المجالسِ والنَّظَرِيَّاتِ[٢].

٢٤ - مَسَائِلُ مُشكِلَةٌ في آياتِ القُرْآنِ[٣].

٢٥ - المُعْتَقَد[٤].

٢٦ - المُفْرَدَات في الفِقْهِ[٥].

٢٧ - المُنَاظَرَات[٦].

٢٨ - المَنْثور[٧].

٢٩ - النَّصِيحَة[٨].

٣٠ - جزء في مَدْحِ الحَلاَّجِ[٩].

---

(١) ذكره البعليُّ في «المُطْلع» (ص٤٤٥).

(٢) ذكره ابن رجب في «الذّيل على طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٧)

(٣) ذكره ابن رجب في «الذّيل على طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٧)

(٤) ذكره الدُّكتور سليمان العمير في مقدِّمته لـ «جزء في أصول الدِّين» (ص٢٨).

(٥) ذكره ابن رجب في «الذّيل على طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٧)

(٦) ذكره الدُّكتور سليمان العمير في مقدِّمته لـ «جزء في أصول الدِّين» (ص٢٨)، وقَال: ذكره العماد الأصْبَهانيُّ.

(٧) ذكره ابن رجب في «الذّيل على طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٧)

(٨) ذكره الدُّكتور سليمان العمير في مقدِّمته لـ «جزء في أصول الدِّين» (ص٢٨)، وقَال: ذكرها ابنُ قُدامَةَ في كتابه «الردّ عَلَىٰ ابنِ عقيلٍ»، وهو كتابٌ مخطوطٌ.

(٩) صنَّفَهُ في شَبَابِهِ، ذكر ذلك ابْنُ الجوزيُّ في «المُنتظم» (٦/ ١٦٥)، وابْنُ رَجبٍ في «الذيل على طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٧)، وقد تاب من ذلك، ومن كُلِّ ما نُسِبَ له توبةً عظيمةً، وأَعْلَنَ الرُّجوعَ عن كُلِّ ما كان يعتقده، أو مما صنَّفه ممَّا هو مُخالف لمنهج السَّلف، وكتب ذلك بخطِّه، وأَشْهَدَ عليه جَمْعًا مِنَ العُلَمَاءِ، كما ذَكَر ذلك ابْنُ الجوزيُّ في «المُنْتَظِم» (٨/ ٢٥٤)، وابْنُ رَجَبٍ في «الذَّيلِ» =

(١ / ٣٢٢)، ومِمَّا ذُكر في توبته كما في الكتابين، يقول عليُّ بْنُ عقيلِ بْن محمَّدٍ: «إنِّي أبْرَأُ إلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - مِنْ مَذَاهِبِ مُبْتَدِعَةِ الاعْتِزَالِ وغَيْرِه، وَمِنْ صُحْبَةِ أَرْبَابِه، وتَعْظِيمِ أصْحَابِه، والتَّرَحُّمِ عَلَىٰ أسْلافِهِمْ، و التَّكثُّرِ بِأَخْلاقِهِمْ، وَمَا كُنْتُ عَلَّقْتُهُ، وَوُجِدَ بِخَطِّي مِنْ مَذَاهِبِهِم وضَلالَتِهِمْ - فَأَنَا تَائِبٌ إلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - مِنْ كِتَابَتِه، ولا تَحِلُّ كِتَابَتُهُ، ولا قِرَاءَتُهُ، ولا اعْتِقَادُهُ، وإنَّنِي عَلَّقْتُ مَسْأَلَةَ اللَّيْلِ فِي جُمْلَةِ ذَلِكَ، وإنَّ قَوْمًا قَالوا: هُوَ أَجْسَادٌ سُودٌ، وقُلْتُ: الصَّحِيحُ ما سَمِعْتُهُ مِنَ الشَّيْخِ أبي عَلِيٍّ، وأَنَّهُ قَالَ: هُوَ عَدَمٌ ولا يُسَمَّىٰ جِسمًا، ولا شَيْئًا أَصْلاً، وَاعْتَقَدْتُ أنا ذَلِكَ، وأَنَا تَائِبٌ إلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - مِنْهُمْ، واعْتَقَدْتُ في الحَلاَّجِ أنَّهُ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ والزُّهْدِ والكَرَامَاتِ، ونَصَرْتُ ذَلِكَ في جُزْءٍ عَمِلْتُهُ، وأَنَا تَائِبٌ إلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - مِنْهُ، وَأَنَّهُ قُتِلَ بِإجْمَاعِ عُلَمَاءِ عَصْرِه، وَأَصَابُوا في ذَلِكَ، وأَخْطَأَ هُوَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ - تَعَالَىٰ - وأَتُوبُ إلَيْهِ مِنْ مُخَالَطَةِ المُعْتَزِلَةِ، والمُبْتَدِعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، والتَّرَحُّمِ عَلَيْهِمْ، والتَّعْظِيمِ لَهُمْ، فَإنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حَرَامٌ، ولا يَحِلُّ لمُسْلِمٍ فِعْلُهُ لِقَوْلِ النَّبيِّ - ﷺ - : «مَنْ عَظَّمَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ، فَقَدْ أعَانَ عَلَىٰ هَدْمِ الإسْلامِ» . [ضعيف، رواه ابنُ عديّ (١ / ٩٠)، وابن حبّان في «الضُّعَفَاء» (١ / ٢٣٥)، عن الحسن بن يحيى الخشني، وقالَ عن الخشني: منكر الحديث، وقال ابن عديّ: موضوع، الخشني يروي عن الثقات ما لا أصل له، وإنّما يعرف نحو هذا من قول الفضيل بن عياض، وضعّفه الألبانيُّ في «الضعيفة» (١٨٦٢)].

وقَدْ كانَ الشَّرِيفُ أَبُو جَعْفَرٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الشُّيُوخِ والأَتْبَاعِ سادتي وإخْواني - حَرَسَهُمُ اللهُ - تَعَالَىٰ - مُصِيبِينَ في الإنْكَارِ عَلَيَّ؛ لِمَا شَاهَدُوهُ بِخَطِّي مِنَ الكُتُبِ الَّتي أبْرَأُ إلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - مِنْهَا، وأَتَحَقَّقُ أَنِّي كُنْتُ مُخْطِئًا غَيْرَ مُصِيبٍ، وَمَتَىٰ حُفِظَ عَلَيَّ مَا يُنَافِي هَذَا الخَطَّ وَهَذَا الإقْرَارَ، فَلإمَامِ المُسْلمِينَ مُكَافَأَتِي علَىٰ ذَلِكَ، وأُشْهِدُ اللهَ ومَلائكَتَهُ وَأُولي العِلْمِ عَلَىٰ ذَلِكَ غَيْرَ مُجْبَرٍ ولا مُكْرَهٍ، وبَاطِنِي وَظَاهِرِي - يَعْلَمُ اللهُ تَعالَىٰ - في ذلك سَوَاءٌ، قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

وكُتِبَ يَوْمَ الأَرْبعاءِ عَاشِرَ مُحَرَّمٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وأَرْبَعمائَةٍ، وَكَانَتْ كِتَابَتُهُ قَبْلَ حُضُورِهِ الدِّيوانَ بِيَوْمٍ، فَلَمَّا حَضَرَ شَهِدَ عَلَيْه جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الشُّهُودِ والعُلَمَاءِ».

ومَعَ ذَلِكَ كُلِّه فإنَّهُ بقي مُتَأَثِّرًا بهم في بَعْضِ المَسَائِلِ.

قَالَ شَيْخُ الإسْلامِ ابْنِ تَيميَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - في كتابه «درء تعارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» (٥ / ٦٠، ٦١): «ولابْنِ عَقيلٍ أنْوَاعٌ مِنَ الكَلامِ؛ فإنَّهُ مِنْ أذْكِياءِ العَالَمِ، كَثِيرُ الفِكْرِ والنَّظَرِ في كَلامِ النَّاسِ، فَتَارَةً يَسْلُكُ مَسْلَكَ نُفَاةِ الصِّفَاتِ الخَبَرِيَّةِ، وَيُنْكِرُ مَنْ يُسَمِّيها صِفَاتٍ، ويقول: إنَّمَا هي إضَافاتٌ مُوافقةٌ للمُعْتَزِلَةِ، كما فَعَلَهُ في كتابه «ذَمِّ التَّشْبيهِ وإثْبَاتِ التَّنْزيهِ»، وغَيْرِه من كُتُبه، وَوَافَقَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَبُو

ثَنَاءُ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ:

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «وَهُوَ فَرِيدُ فَنِّهِ، وإِمَامُ عَصْرِهِ، كَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ، ظَاهِرَ المَحَاسِنِ..»(١).

وقَالَ - أَيْضًا - : «أَفْتَىٰ ابْنُ عَقِيلٍ، وَدَرَّسَ، وَنَاظَرَ الْفُحُولَ، واسْتُفْتِيَ في الدِّيوَانِ في زَمَنِ القَائِمِ في زُمْرَةِ الكِبَارِ، وَجَمَعَ عِلْمَ الفُرُوعِ والأُصُولِ، وَصَنَّفَ فِيْهَا الكُتُبَ الكِبَارَ، وكَانَ دَائِمَ التَّشَاغُلِ بِالْعِلْمِ»(٢).

وَقَالَ: «كَانَ ابْنُ عَقِيلٍ قَوِيَّ الدِّيَانَةِ، حَافِظًا لِلْحُدُودِ، وكَانَ كَرِيمًا يُنْفِقُ مَا يَجِدُ، ولَمْ يُخَلِّفْ سِوَىٰ كُتُبِهِ، وثِيَابِ بَدَنِهِ»(٣).

= الفَرَجِ بْنُ الجَوْزِيُّ في كتاب «كَفّ التَّشبيه بكفّ التَّنزيه»، وفي كتابه «منهاجُ الوُصُول»، وتَارَةً يُثْبِتُ الصِّفَات الخبريَّةَ، ويَرُدُّ عَلَىٰ النُّفَاةِ المُعْتَزِلَة بأنْوَاعٍ مِنَ الأَدلَّة الوَاضِحَات، وتَارَةً يُوجِبُ التَّأويلَ، كَمَا فَعَلَ في «الواضح» وغيره، وتارةً يُحَرِّمُ التَّأويلَ، ويَذمُّهُ، وينْهَىٰ عَنْهُ، كما فعَلَهُ في كتابه «الانتصار لأهل الحديث»، فيوجد في كلامه مِنَ الكلامِ الحَسَنِ البَلِيغِ مَا هُوَ مُعظَّمٌ مَشْكُورٌ، ومِنَ الكَلامِ المُخالفِ للسُّنَّة والحَقِّ ما هُوَ مَذْمُومٌ مَدْحُورٌ...».

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «ولابن عقيلٍ مِنَ الكَلامِ في ذَمِّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الشَّرِيعَةِ مِنْ أَهْلِ الكلامِ والتَّصوُّفِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ».

وقَالَ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - كَمَا في «الميزان» (٣/ ١٤٦) عن ابْنِ عَقِيلٍ: «أَحَدُ الأَعْلامِ، وفَرْدُ زَمَانِه عِلْمًا ونَقْلاً، وذَكَاءً وتَفَنُّنًا، إِلاَّ أَنَّهُ خَالَفَ السَّلَفَ، ووافَقَ المُعْتَزِلَةَ في عِدَّةِ بِدَعٍ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ؛ فإِنَّ كَثْرَةَ التَّبَحُّرِ في عِلْمِ الكلامِ رُبَّمَا أَضَرَّ بِصَاحِبِهِ، وَمِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيه».

وقَالَ ابْنُ رَجَبٍ - رَحِمَهُ اللهُ - كما في «الذَّيْل» (١/ ٣٢٢): «كَانَ أَصْحَابُنَا يَنْقِمُونَ عَلَىٰ ابْنِ عَقِيلٍ تَرَدُّدَهُ إِلَىٰ ابْنِ الوَلِيدِ، و ابْنِ التَّبَّانِ شَيْخَي المُعْتَزِلَة، وكَانَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمَا في السِّرِّ عِلْمَ الكَلامِ، ويَظْهَرُ مِنْهُ - في بَعْضِ الأَحْيَانِ - نَوْعُ انحرافٍ عَنِ السُّنَّةِ، وتَأَوُّلٍ لِبَعْضِ الصِّفَاتِ، ولَمْ يَزَلْ فيه بَعْضُ ذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ - رَحِمَهُ اللهُ -».

(١) «المنتظم» (٩/ ٢١٢، ٢١٣). (٢) «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (١/ ٣٢٤).

(٣) المرجع السابق (١/ ٣٢٥).

وَقَالَ السِّلَفِيُّ: «مَا رَأَتْ عَيْنَايَ مِثْلَ الشَّيْخِ أَبِي الوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ الْفَقِيهِ، مَا كَانَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَهُ لِغَزَارَةِ عِلْمِهِ، وَحُسْنِ إِيرادِهِ، وبَلاغَةِ كَلامِهِ، وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ»[(١)].

وقَالَ العِمَادُ الأَصْفَهَانِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «سَمِعْتُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ كَثِيراً مِنْ شَيْخِنَا وأُسْتَاذِنَا يُوسُفَ الدِّمَشْقِيِّ، وَمِنْ شَيْخِنَا أَحْمَدَ الحَرِيرِيِّ، وَمِنْ شَيْخِنَا أَبِي مَنْصُورٍ الرَّزَّازِ، والْكُلُّ يُبَجِّلُهُ بِفَضْلِهِ، ويَعْتَرِفُ بِنُبْلِهِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِحُسْنِ المُحَاوَرَةِ، مَأْمُونُ الصُّحْبَةِ والمُجاوَرَةِ، رَيَّانُ مِنْ كُلِّ فَنٍّ»[(٢)].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - : «وكَانَ ابْنُ عَقِيلٍ مِنْ أَذْكِيَاءِ العَالَمِ»[(٣)].

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «أَحَدُ الأَعْلامِ، وَفَرْدُ زَمَانِهِ عِلْمًا وَنَقْلاً، وَذَكَاءً وَتَفَنُّنًا»[(٤)].

وَقَالَ - أَيْضًا - : «وكَانَ يَتَوَقَّدُ ذَكَاءً، وكَانَ بَحْرَ مَعَارِفَ، وكَنْزَ فَضَائِلَ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي زَمَانِهِ نَظِيرٌ...»[(٥)].

وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ - رَحِمَهُ اللهُ - : «كَانَ ابْنُ عَقِيلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَظِيمَ الحُرْمَةِ، وَافِرَ الجِلَّةِ عِنْدَ الخُلَفَاءِ والمُلُوكِ، وكَانَ شَهْمًا مِقْدَامًا، يُوَاجِهُ الأَكَابِرَ بِلَفْظِهِ وَخَطِّهِ»[(٦)].

---

(١) المرجع السابق (١/٣٢٦). (٢) «خَرِيدة القَصْر» (٣/٣٠).
(٣) «دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» (٥/٦٠، ٦١).
(٤) «الميزان» (٣/١٤٦). (٥) «السِّيَر» (١٩/٤٤٥).
(٦) «الذَّيْل عَلَىٰ طَبَقات الحنابلة» (١/٣٢٧).

وَقَالَ - أَيْضاً - : «كَانَ ابْنُ عَقِيلٍ - رَحِمَهُ اللهُ - مِنْ أَفَاضِلِ العَالَمِ، وَأَذْكِيَاءِ بَنِي آدَمَ، مُفْرِطَ الذَّكَاءِ، مُتَّسِعَ الدَّائِرَةِ فِي العُلُومِ، وكَانَ خَبِيراً بِالْكَلَامِ، مُطَّلِعاً عَلَىٰ مَذَاهِبِ المُتَكَلِّمِينَ، وَلَهُ - بَعْدَ ذَلِكَ - فِي ذَمِّ الكَلَامِ وَأَهْلِهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ»[١].

وَقَالَ - أَيْضاً - : «وكَانَ - رَحِمَهُ اللهُ - بَارِعاً فِي الفِقْهِ وَأُصُولِهِ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ اسْتِنْبَاطَاتٌ عَظِيمَةٌ حَسَنَةٌ، وَتَحْرِيرَاتٌ كَثِيرَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ، وَكَانَتْ لَهُ يَدٌ طُولَىٰ فِي الوَعْظِ وَالمَعَارِفِ، وكَلَامُهُ فِي ذَلِكَ حَسَنٌ، وَأَكْثَرُهُ مُسْتَنْبَطٌ مِنَ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمِنْ مَعَانِي كَلَامِهِ يَسْتَمِدُّ أَبُو الفَرَجِ بْنُ الجَوْزِيِّ فِي الْوَعْظِ»[٢].

وَقَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - : «هَذَا الرَّجُلُ مِنْ كِبَارِ الأَئِمَّةِ، وَقَدْ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ أَهْلُ عَصْرِهِ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَطْرَاهُ[٣] ابْنُ الجَوْزِيِّ، وَعَوَّلَ[٤] عَلَىٰ كَلَامِهِ فِي أَكْثَرِ مُصَنَّفَاتِهِ»[٥].

وَكَانَ لابْنِ عَقِيلٍ وَلَدَانِ، مَاتَا فِي حَيَاتِهِ:

أَحَدُهُمَا - أَبُو الحَسَنِ عَقِيلٌ[٦]، كَانَ فِي غَايَةِ الحُسْنِ، وَكَانَ شَابّاً فَهِماً، ذَا خَطٍّ حَسَنٍ، فَقِيهاً فَاضِلاً، يَفْهَمُ المَعَانِي جَيِّداً، وَيَقُولُ الشِّعْرَ[٧]، وَتُوُفِّيَ - رَحِمَهُ اللهُ - يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، مُنْتَصَفَ مُحَرَّمٍ سَنَةَ عَشْرٍ وَخَمْسِمَائَةٍ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْعُمْرِ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً.

---

(١) «الذَّيْل عَلَىٰ طَبَقاتِ الحنابلة» (١ / ٣٣٦).

(٢) «الذَّيْل عَلَىٰ طَبَقاتِ الحنابلة» (١ / ٣٣٩).

(٣) أطراهُ: أَحْسَنَ الثَّناءَ عَلَيْه.

(٤) عوَّلَ عليه مُعوَّلاً: اتَّكَلَ وَاعْتَمَدَ.

(٥) «لسان الميزان» (٤ / ٣٤٣).

(٦) مَذْكُورٌ في تَرْجَمَةِ أَبِيهِ في «مُخْتَصَرِ الذَّيْلِ عَلَىٰ طَبَقَاتِ الحَنَابِلَةِ»، و«المَنْهَجِ الأَحْمَدِ»، وَغَيْرِهِمَا، وَخَصَّهُ ابْنُ النَّجَّارِ بِالتَّرْجَمَةِ في «ذَيْلِ تَارِيخِ بَغْدَادَ» (٢ / ٢٨٨).

(٧) «الذَّيْلُ عَلَىٰ طَبَقَاتِ الحَنَابِلَةِ» لابن رجب (١ / ٣٥٨).

وَذُكِرَ عَنِ الإمَامِ أَبي الْوَفَاءِ: أَنَّهُ أَكَبَّ عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ، وهُوَ في أَكْفَانِه، وَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ الَّذي لا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ، الرَّبُّ خَيْرٌ لَكَ مِنِّي. ثُمَّ مَضَىٰ، وصَلَّىٰ عَلَيْهِ بِجَنَانٍ(١) ثَابِتٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ (٢).

والآخَرُ - أَبُو مَنْصُورٍ هِبَةُ اللهِ(٣)، وُلِدَ في ذي الحِجَّةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وأَرْبَعمائَةٍ، وَحفظَ القُرْآنَ، وتَفَقَّهَ، وَظَهَرَ مِنْهُ أَشْيَاءُ تَدُلُّ عَلَىٰ عَقْلٍ غَزِيرٍ، وَدِينٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ مَرِضَ وَطَالَ مَرَضُهُ، وأَنْفَقَ عَلَيْهِ أَبُوهُ مَالاً في المَرَضِ، وَبَالَغَ.

قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ: قَالَ لي ابْني لَـمَّا تَقَارَبَ أَجَلُهُ: يَا سَيِّدي، قَدْ أَنْفَقْتَ وَبَالَغْتَ في الأَدْوِيَةِ والطِّبِّ وَالأَدْعِيَةِ، وَلِلَّهِ ـ تَعَالَىٰ ـ فِيَّ اخْتِيارٌ، فَدَعْني مَعَ اخْتِيَارِهِ.

قَالَ: فَوَاللهِ، مَا أَنْطَقَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ وَلَدي بِهَذِهِ المَقَالَةِ، الَّتي تُشَاكِلُ قَوْلَ إِسْحَاقَ لإِبْرَاهِيمَ(٤): ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢]، إلاَّ وَقَدْ اخْتَارَهُ اللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ لِلْحَظْوَةِ(٥).

تُوُفِّيَ ـ رَحِمَهُ تَعَالَىٰ اللهُ ـ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعمائَةٍ، وَلَهُ نَحْوُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَحَمَلَ أَبُو الْوَفَاءِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في نَفْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ أَمْرًا عَظِيمًا، وَلَكِنَّهُ تَصَبَّرَ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ جَزَعٌ، وَكَانَ يَقُولُ: لَوْلا أَنَّ القُلُوبَ تُوقِنُ بِاجْتِمَاعٍ ثَانٍ، لَتَفَطَّرَتِ المَرَائِرُ لِفِرَاقِ المَحْبُوبِينَ(٦).

---

(١) الجَنَان ـ بالفَتحِ ـ: القَلْب، والجمع أَجْنَانٌ.

(٢) «الذَّيْل علَىٰ طَبقات الحنابلة» (١/٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) مذكور في آخر ترجمة أبيه في «مختصر الذَّيْلِ» لابن نَصْرِ اللهِ، و«المَنْهَجِ الأَحْمَدِ»، ويُرَاجَعُ «المُنْتَظَمُ»، و«الشَّذَرَاتُ» وغيرها.

(٤) هذا عَلَىٰ أَنَّ إِسْحَاقَ هُوَ الذَّبِيحُ، وأَغْلَبُ العُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ ـ عليهما السَّلامُ ـ .

(٥) الحُظْوَة ـ بالضَّمِّ والكَسْرِ ـ : المنزلة والمكانة، والجمع حظًا وحِظَاءٌ.

(٦) «الذَّيل علَىٰ طَبقات الحنابلة» (١/٣٦٢).

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَقِيلٍ – مَعَ بَلاغَتِهِ وَحُسْنِ إِيرَادَتِهِ – شَاعِرًا مَطْبُوعًا[١]، فَمِنْ شِعْرِهِ:

يَقُولُونَ لي: مَا بَالُ جِسْمِكَ نَاحِلٌ
وَدَمْعُكَ مِنْ آمَاقِ[٢] عَيْنَيْكَ هَاطِلُ؟!
وَمَا بَالُ لَوْنِ الجِسْمِ بُدِّلَ صُفْرَةً
وَقَدْ كَانَ مُحْمَرًّا؟! فَلَوْنُكَ حَائِلُ[٣]
فَقُلْتُ سَقَامًا[٤] حَلَّ[٥] في بَاطِنِ الحَشَا[٦]
وَلَوْعَةَ[٧] قَلْبٍ بَلْبَلَتْهُ[٨] الْبَلابِلُ[٩]
وَأَنَّىٰ لِمِثْلِي أَنْ يَبِينَ لِنَاظِرٍ؟!
وَلَكِنَّنِي لِلْعَالَمِينَ أُجَامِلُ
فَلا تَغْتَرِرْ يَوْمًا بِبَشْرِي[١٠] وظَاهِرِي
فَلِي بَاطِنٌ قَدْ قَطَّعَتْهُ النَّوَازِلُ[١١]

---

(١) مَطْبُوعًا: مَجْبُولاً، يُقَالُ: طُبِعَ عَلَىٰ الشِّعْرِ: أي جُبِلَ وفُطِرَ.

(٢) آماق: جمع مَاقٍ، ومَأْقُ العَينِ: طَرَفُهَا مِمَّا يَلِي الأنفَ، وهو مَجْرَىٰ الدَّمْعِ مِنَ العَيْنِ.

(٣) حَائل: مُتَغيِّر.

(٤) السَّقَامَ – بزنة سحاب – : المرض.

(٥) حَلَّ: نَزَلَ.

(٦) الحشا: ما في البطن مِنْ كَبِدٍ، وطِحَالٍ، وكَرِشٍ، وما تَبِعَهُ، والجمع أحْشَاءٌ.

(٧) اللَّوْعَة – بالفتح – : الحُرْقَة والأَلَم.

(٨) بَلْبَلَتْهُ: هَيَّجَتْهُ وَحَرَّكَتْهُ.

(٩) البلابِلُ: شِدَّةُ الهَمِّ والوساوسِ.

(١٠) البَشَرُ – مُحرَّكَةً – : ظاهِرُ الجِلْدِ، جَمْعُ بَشَرَةٍ.

(١١) النَّوَازِلُ: جمع نازِلَةٍ، وهي الشَّديدةُ مِنْ شَدَائِدِ الدَّهْرِ تَنْزِلُ بالنَّاسِ.

وَمَـا أَنَا إِلاَّ كَـالزِّنَادِ[١] تَضَـمَّنَتْ
لَهِـيْـبًـا، ولَكِنَّ اللَّهِـيبَ مُـدَاخِلُ
إِذَا حُـمِّلَ المَرْءُ الَّذي فَـوْقَ طَوْرِهِ[٢]
يُرَىٰ عَنْ قَـرِيبٍ مِنْ تَجَلُّدٍ[٣] عَـاطِلُ[٤]
لَعَمْرِي[٥]، إِذَا كَانَ التَّجَمُّلُ كُلْفَةً[٦]
يَـكُونُ كَـذَا بَيْنَ الأَنَامِ[٧] مُـجَامِلُ
فَـأَمَّـا الَّذي ثَنَىٰ لَهُ الدَّهْرُ عِطْفَـهُ[٨]
وَلانَ لَهُ وَعْـرُ[٩] الأُمُـورِ مُـوَاصِلُ
بِأَلْطَافِ قُـرْبٍ يَسْـهُلُ الصَّعْبُ عِنْدَهَا
وَيَنْعَمُ فِـيـهَا بِالَّذي كَـانَ يَأمَلُ
تَرَاهُ رَخِيَّ البَالِ[١٠] مِنْ كُلِّ عُلْقَةٍ[١١]
وَقَدْ صَمِيَتْ مِنْهُ الكُلَىٰ وَالمَفَاصِلُ[١٢]

---

(١) الزِّنَاد: جَمع زَنْدٍ - بالفتح -، وهو العُودُ الَّذي يُقْدَحُ به النَّارُ.

(٢) طَوْره - بالفتح -: قَدْره.

(٣) التَّجَلُّد: تَكَلُّف الجَلادَةِ، وهي الصَّلابة والقُوَّة.

(٤) عَاطل: خالٍ.

(٥) لَعَمْري - بفتح العين لا غَيْرُ -: أسلوب قَسَمٍ، مَعْنَاهُ: وحياتي، وقيل: وديني.

(٦) الْكُلْفَة - بالضَّمِّ -: مَا يَتَكَلَّفه الإنسانُ مِنْ نَائِبَةٍ أو حقٍّ.

(٧) الأَنام: الخَلق والنَّاس.

(٨) ثَنَىٰ لَهُ الدَّهْرُ عِطْفَهُ - بكسر العين -: أعرض عنه، ولم يَتَعرَّضْ لَهُ بشدائده ونوازله.

(٩) الوَعْرُ: ضِدُّ السَّهْلِ.

(١٠) رَحْلٌ رَخِيُّ البَال: أي وَاسع الحال بَيِّنُ الرَّخاءِ.

(١١) العُلْقة - بالضَّمِّ -: كُلُّ ما يُتَبَلَّغُ به مِنَ العَيْشِ.

(١٢) الذَّيل (١/٣٥٤ - ٣٥٥).

وَفَاتُـهُ :

وَبَعْدَ حَيَاةٍ حَافِلَةٍ بِالْعِلْمِ وَالتَّعَلُّمِ وَالمِحَنِ، قَضَاهَا الإِمَامُ ابْنُ عَقِيلٍ، تُوُفِّيَ بُكْرَةَ الجُمُعَةِ ثانيَ عَشَرَ جُمَادَىٰ الأُولَىٰ سَنَةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ وَخَمْسمائَةٍ، وَصَلَّىٰ عَلَيْهِ ابْنُ شَافِعٍ، وكَانَ الجَمْعُ يَفُوقُ الإِحْصَاءَ، قَالَ ابْنُ نَاصِرٍ: حَزَرْتُهُمْ بِثَلاثمائَةِ أَلْفٍ، وَدُفِنَ في دَكَّةِ قَبْرِ الإِمَامِ أَحْمَدَ - رحِمَهُ اللهُ - ، فَمَا كَانَ في مَذْهَبِنَا مِثْلُهُ(١).



(١) الذَّيل (١/ ٣٥٥).

شَذْرَةٌ[١] وعظيةٌ

مَا أَشَدَّ شُؤْمَ المَعَاصِي!، أَبونا يَسْمَعُ قَوْلَ اللهِ لِمَلائكَتِه: ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، حَتَّىٰ سَمعَ النِّدَاءَ: ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٣٨].

بَيْنَا يَرْفُلُ[٢] في حُلَلٍ[٣] مِنَ السُّنْدُسِ[٤] والإِسْتَبْرَقِ[٥]، حَتَّىٰ طَفِقَ[٦] يَخْصِفُ عَلَىٰ عَوْرَتِه مِنَ الْوَرَقِ[٧].

وإِذا أَرَدْتَ أَنْ تَتَلَمَّحَ القَدَرَ السَّابِقَ، فَانْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِه السَّابِقِ: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، خَلِيفة في الأَرْضِ، ما يَصْنَعُ في الجَنَّة؟، سَاقَتْهُ الكَلِمَةُ السَّابِقَةُ، والعِلْمُ السَّابِقُ إِلَىٰ المُسْتَقَرِّ: ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦][٨].

---

(١) الشَّذْرَة – بالفتح – : القطعة الذَّهَبِيَّة تُلْقَطُ مِنْ مَعْدنِ الذَّهَبِ بلا إِذَابَةٍ، والجَمْعُ شَذْرٌ.

(٢) يرفل – من باب نَصَرَ – : يَجرُّ ثِيَابَهُ في مِشْيَتِه مُتَبَخْتِرًا.

(٣) حُلَل: جَمْعُ حُلَّةٍ – بالضَّمِّ – ، وهي إِزَارٌ ورِدَاءٌ، ولا تُسَمَّىٰ حُلَّةً حَتَّىٰ تَكونَ ثَوْبَيْنِ، أَوْ ثَوْبًا لَهُ بطَانَةٌ، وَتُجْمَعُ – أَيْضًا – عَلَىٰ حِلالٍ.

(٤) السُّنْدُس – بالضَّمِّ – ، الحرير الرقيق.

(٥) الإِسْتَبْرَق: الحرير الغليظ.

(٦) طَفِقَ يَفْعَلُ كَذَا – مِنْ بَابِ فَرِحَ – : جَعَلَ وأَخَذَ، وطَفَقَ – بالفَتْحِ – لُغَةٌ رَدِيئَةٌ.

(٧) يَخْصِفُ عَلَىٰ عَوْرَتِه مِنَ الوَرَقِ – مِنْ بَابِ ضَرَبَ – : أي يُلزِقُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ؛ لِيَسْتُرَ بِهِ عَوْرَتَهُ.

(٨) الفُنون (١/٨).

الحَذَرُ مِنَ الخَلْوَةِ والاخْتِلاطِ

اعْلَمْ أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – قَدْ نَبَّهَكَ عَلَىٰ حِفْظِ حُرَمِكَ(١)، وَإِلْغَاءِ الثِّقَةِ عَلَيْهِمْ بِمَنْ طَالَتْ صُحْبَتُهُ، وَحَسُنَتْ تَرْبِيَتُهُ وَسِيرَتُهُ، حَيْثُ أَعْلَمَكَ أَنَّ كَرِيمًا مِنْ أَوْلادِ خِيارِ الأَنْبِياءِ كَانَ بَيْنَ عَزِيزٍ رَبَّاهُ، وَسَيِّدَةٍ كَرِيمَةٍ أَكْرَمَتْ مَثْوَاهُ(٢)، حَانَتْ مِنْهُ مَعَهَا خَلْوَةٌ، ثَارَتْ بَيْنَهُمَا هَمَّةٌ(٣)، قَارَبَ بِهَا حُصُولَ المِحْنَةِ والفِتْنَةِ، لَوْلا تَدَارُكُ البَارِي لَهُ بِالعِصْمَةِ، وَإِقَامَةَ البُرْهَانِ لِصَرْفِ الهَمَّةِ.

مِنْ أَيْنَ لَكَ اليَوْمَ مِثْلُ ذَلِكَ الكَرِيمِ؟!، وَمِنْ أَيْنَ لِمَنْ يَخْلُو بِأَهْلِكَ عِصْمَةٌ تَطْرُدُ الهَمَّةَ، وَبُرْهَانٌ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفِتْنَةِ؟!، فَاللهَ اللهَ عَلَىٰ الثِّقَةِ بِإِنْسَانٍ مَعَ نُصْحِ القُرْآنِ بِهَذَا البَيَانِ!(٤).

المُبْتَدِعُونَ خَوَارِجُ الشَّرَائِعِ

كَمَا لا يَحْسُنُ فِي سِيَاسَةِ المَلِكِ العَفْوُ عَمَّنْ سَعَىٰ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ بِالخُرُوجِ عَلَىٰ السُّلْطَانِ، لا يَحْسُنُ – أَيْضًا – أَنْ يُعْفَىٰ عَمَّنِ ابْتَدَعَ فِي الأَدْيَانِ؛ لأَنَّ فَسَادَ الأَدْيَانِ بِالابْتِدَاعِ كَفَسَادِ الدُّوَلِ بِالخُرُوجِ عَلَىٰ المَلِكِ والاسْتِتْبَاعِ، فَالمُبْتَدِعُونَ خَوَارِجُ الشَّرَائِعِ(٥).

---

(١) حُرَمُ الإِنْسَانِ – بِضَمِّ الحَاءِ – : نِسَاؤُهُ وَمَا يَحْمِي، وَهِيَ المَحَارِمُ.

(٢) المَثْوَىٰ : المنزل، والجمعُ المَثَاوِي.

(٣) الهمَّة – بالكسر والفتح – : أوَّلُ العزيمة.

(٤) الفنون (١ / ٢٠).

(٥) الفنون (١ / ١٠٩).

الغَضَبُ بِقَدْرِ العُقُوبَةِ

لا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ – ولا لِصَدْرٍ مِنَ الصُّدُورِ – أَنْ يُظْهِرَ مِنَ الغَضَبِ إلاَّ بِحَسَبِ مَا أَعَدَّهُ لَهُ مِنَ العُقُوبَةِ؛ فَإِنْ كَانَتْ بَطْشَتُهُ دُونَ غَضَبِه، حُقِّرَ غَضَبُهُ، وَاسْتُهْيِنَ بِسَخَطِه، وَانْكَشَفَ عَجْزُهُ، وَقَدْ قَالَ النَّاسُ في ذَلِكَ: «إذَا غَضِبَ السُّوقِيُّ(١) فالحَبَّةُ تَكْفِيه»(٢).

مَحَاسِنُ الدُّنْيَا وَمَعَايِبُهَا

إِنْ ذَمَمْتَ الدُّنْيا بالغُرُورِ؛ فَهلاَّ(٣) مَدَحْتَهَا بِمَا وَعَظَتْ بِهِ مِنْ تَصَارِيفِهَا(٤) عَلَىْ مَرِّ الدُّهُورِ، واللهِ، لَقَدْ تَكَشَّفَتْ عَنْ مَعَايِبَ تُوجِبُ الزُّهْدَ فيها، كَمَا أَبْرَزَتْ عَنْ مَحَاسِنَ تُوجِبُ الرَّغْبَةَ فِيهَا(٥).

---

(١) السُّوقِيُّ: العامِّيُّ.
(٢) الفنون (١/١٤٢).
(٣) هَلاَّ: أداةُ تَحْضِيضٍ، والتَّحْضيضُ: هُوَ التَّرْغِيبُ القَوِيُّ في فِعْلِ شَيْءٍ أَوْ تَرْكِه.
(٤) تصَارِيفها: تَقَلُّبَاتِها.
(٥) الفنون (١/٢٥٣).

حَالُ النَّاسِ مَعَ الصَّالِحِينَ

مَا أَعْجَبَ شَأْنَ العَارِفِ[١]!، وَأَعْجَبَ شَأْنَ الخَلْقِ مَعَهُ!، تَبَذَّلَ[٢] التُّجَّارُ مِنْهُمْ في طَلَبِ الأَرْبَاحِ، وَتَعْبِئَةِ الأَمْوَالِ، وَلَمْ يُعابوا، وَتَبَذَّلَ المُحِبُّونَ والعُشَّاقِ والمُتَيَّمُونَ[٣] في مَحَبَّةِ الأَشْخَاصِ، وَلَمْ يُلامُوا، وَتَبَذَّلَ قَوْمٌ في مَحَبَّةِ الخَيْلِ والطُّيورِ والصَّيْدِ، وَلَمْ يُعَابُوا، تبذَّلَ قَوْمٌ في عِبادَةِ بارِئِهِمْ، فَكَثُرَ اللُّوَّامُ والعُذَّال[٤]، واسْتُهْجِنَتْ[٥] مِنْهُمُ الأَحْوَالُ، والأَقْوَالُ، وقيلَ فيهم كُلُّ مَقولٍ، ونُسِبُوا إِلَىٰ كُلِّ عَظِيمٍ مِنَ الخَطَأ وَمَهُولٍ، وقِيلَ: مَا لَهُمْ عُقُولٌ، ومَعْلُومٌ أَنَّ المُتَبَذِّلَ في اللهِ لا يُلامُ عَقْلاً؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ إِنْعَامِهِ إِنْعَامٌ، ولا عَلَىٰ إِحْسَانه إِحْسَانٌ، نِعَمُهُ تَنْهَالُ، وبِرُّهُ لَمْ يَزَلْ وَلا يَزالُ، يَمْدَحُ عَلَىٰ القَلِيلِ وَهُوَ المُعْطِي، ويَرْضَىٰ بالْيَسِيرِ وَهُوَ الموفِّي ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات: ٨]، لا أَرَىٰ لَكَ ثَبَاتَ قَدَمٍ عَلَىٰ نَدَمٍ، ولا جودٍ، ولا مَوْجُودٍ، مَا لِهَذَا خُلِقْتَ، ولا بِهَذَا أُمِرْتَ؛ فَارْجِعْ وَأَنِبْ، وَاسْتَغْفِرْ وَتُبْ؛ فَلَقَدْ رَحَلَ إِخْوَانُكَ سَابِقِينَ، وبَقِيتَ أَنْتَ مَعَ المُتَخَلِّفِينَ[٦][٧].

---

(١) لَوْ قَالَ مُؤْمِنٌ كَانَ أَوْلَىٰ؛ لأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وإِنَّمَا اكْتَفَىٰ بالمَعْرِفَةِ وَحْدَهَا الجَهْم. انظُرْ تَعليق ابن أبي العز الحنفي عَلَىٰ قَول الطَّحَاوي: «وأهل الكبائر من أمة محمد ـ ﷺ ـ في النَّار لا يُخَلَّدونَ، إذا ماتوا وهُمْ موحدون، وإِنْ لَمْ يَكُونوا تَائبينَ، بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله عارفين» (٣٧٢).

(٢) التَّبَذُّلُ: تَرْكُ التَّصاوُن.

(٣) المُتَيَّمون: المُسْتَعْبَدونَ الذَّليلون.

(٤) العُذَّال: جَمع عَاذِلٍ، وهو اللائم.

(٥) اسْتُهْجِنَتْ: اسْتُقْبِحَتْ.

(٦) المُتَخَلِّفينَ: المُتَأَخِّرِينَ.

(٧) الفنون (١/ ٢٥٨).

أَدَاءُ النَّوافِلِ مَعَ الإِخْلالِ بِالفَرَائِضِ

مَنْ كَانَ عَبِقًا[١] بالأَذْكَارِ، بِحَيْثُ إِنْ عَطَسَ قَالَ: «الحَمْدُ لله»، وإِنْ مَاتَ لَهُ مَيِّتٌ قَال: «إِنَّا لله»، وَإِنْ قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيْه طَعَامٌ لِيَأْكُلَ قَالَ: «باسْمِ الله»، وإِنْ أَخْبَرَ فَلَمْ يُصَدَّقْ قَالَ: «أُقسِمُ بالله»، وإِنْ عَرَضَتْ لَهُ حَاجَةٌ قَالَ: «يا رَبِّ»، وإِنْ مَسَّهُ الضُّرُّ نَادَىٰ، وإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْـه نَاجَىٰ- لا يَكُونُ عَنِ الأَفْعَالِ كَـذا، بل عَنِ الأَوَامِـرِ مُتَخَلِّفٌ، وبِالنَّوَاهِي كَلِفٌ[٢] شَغِفٌ[٣]، وَمَعَ الرَّسْمِ[٤] لا يَقِفُ.

المُؤَذِّنُ يُنَادِي إِلَىٰ الصَّلاةِ وَأَنْتَ مُعْرِضٌ، وَحَوْلُ الزَّكَاةِ قَدْ حَالَ وَأَنْتَ في وَجْهِ الْفَقِيرِ مُعَبِّسٌ، وَلِلزَّكَاةِ غَيْرُ مُخْرِجٍ، وإِن اتَّجَهَ نَحْوَكَ حَقٌّ كُنْتَ بِالتَّأْوِيلِ مُسْقِطًا، وَمَا هَذِهِ حَال مَنْ صَدَرَتْ تِلْكَ الأَقْوَالُ عَنْهُ بِحَقِيقَةٍ وَجِدٍّ، وَلَكِنْ باسْتِعَارَةِ لَفْظٍ، وَهَذَا لا يَعْمَلُ مَعَ اللهِ عَمَلاً؛ لأَنَّهُ كالتَّمَلُّقِ[٥]، وَذَلِكَ إِنَّمَا يُنفِقُ عَلَىٰ مَنْ لا يَعُولُ إِلاَّ عَلَىٰ الظَّاهِرِ، وَهُوَ بالعَكْسِ في حَقِّ البَارِي؛ لأَنَّهُ لا يَنْظُرُ إِلاَّ إِلَىٰ المَقَاصِدِ والسَّرَائِرِ.

الظَّواهرُ عِنْدَهُ صُوَرٌ مُنْحَبِطَةٌ، إِنْ لَمْ تَصْدُرْ عَنْ مَقَاصِدَ صَافِيَةٍ خَالِصَةٍ، أَلَمْ تَسْمَعْهُ يَقُولُ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]؟.

مَنْ يَسْمَعُكَ عَبِقَ اللِّسَانِ بِذِكْرِهِ في القَسَمِ، والدُّعَاءِ، والأَكْلِ، والشُّرْبِ،

---

(١) عَبِقًا: لازقًا لاصقًا.

(٢) كَلِفٌ: مُولَع، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٣) شَغِفٌ: مُتَعَلِّق، وبابُهُ فَرِحَ.

(٤) الرَّسْم: يَعْنِي الحُدُود.

(٥) التَّمَلُّقُ: أَنْ تُعْطِيَ باللِّسَانِ ما لَيْسَ في القَلْبِ.

وعِنْدَ الحَاجَةِ، وعِنْدَ كُلِّ حَرَكَةٍ وَسَكَنَةٍ - يَحْسَبُكَ مُحِبًّا أَوْ مُتَخَصِّصًا، فإذا خَبَرَكَ[١] في بَابِ التَّكْلِيفِ عَرَفَكَ[٢].

تَعْظِيمُ اللهِ

لَيْسَ تَعْظِيمُ اللهِ كَثْرَةَ اذِّكارِهِ باللِّسَانِ، إِنَّمَا التَّعْظِيمُ للهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بِحُسْنِ الاسْتِجَابَةِ والامْتِثَالِ، لَيْسَ تَعْظِيمُ اللهِ أَنْ تُسَمِّنَ البُدُنَ[٣] لِلْهَدَايَا وَالنَّحْرِ بِمِنًى، تَعْظِيمُ شَعَائِرِ اللهِ أَنْ تَحُكَّ البَدَنَ في خَلْوَةٍ، فَتَخَافُ بِحَكِّ المَوْضِعِ قَطْعَ شَعْرَةٍ، فَتَحُكُّهُ بباطِنِ كَفِّكَ، نَعَمْ، وَتَكُونُ أَفْعَالُكَ مُتَنَاسِبَةً، مَنْ يَحْتَرِمُ للهِ في الإِحْرَامِ، بِحَيْثُ لا يَشْفِي نَفْسَهُ مِنْ حَكِّ جَسَدِهِ - لا يَشْتَفِي مِنْ أَخِيهِ المُسْلِمِ حَالَ غَضَبِهِ، ولا يَشْفِي النَّفْسَ مِنْ مَحْظُورَاتِ الشَّرْعِ في الخَلْوَةِ، حُرْمَةُ الاحْتِرَامِ آكَدُ مِنْ حُرْمَةِ الإِحْرَامِ، وَمَنْ هَجَرَ المَخِيطَ في الإِحْرَامِ، لا يَلْبَسُ - إذا رَجَعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ - لِبَاسَ الفُجُورِ والآثَامِ[٤].

---

(١) خَبَرَكَ: بَلاكَ واخْتَبَرَكَ، وبَابُهُ نَصَرَ، وَخُبْرًا أيْضًا - بِالضَّمِّ - ، وخِبْرَةً - بالكَسْرِ - .

(٢) الفُنُون (١/ ٢٦٦).

(٣) البُدُنَ - بضمَّتَيْنِ ويَجُوزُ إِسْكَانُ الدَّالِ - : جَمْعُ بَدَنَةٍ - مُحَرَّكَةً - ، وهي نَاقَةٌ أَوْ بَقَرَةٌ تُنْحَرُ بمكَّةَ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمِّنُونَهَا.

(٤) الفنون (١/ ٢٦٧).

الصِّدِّيقُ أفْضَلُ هذه الأمَّةِ بعدَ نبيِّها

عَجَبي مِمَّنْ يَنْتَحِلُ نِحْلَةَ[١] الإسْلامِ، ويَزْعُمُ أنَّهُ علىٰ دينِ مُحَمَّدٍ - ﷺ -، وَهُوَ يَعْلَمُ مَحَلَّ الصِّدِّيقِ مِنَ الدِّينِ، وَتَأْثيرَهُ في الإِسْلامِ بالسَّبْقِ، والإِنْفاقِ، والهِجْرَةِ، والنُّصْرَةِ، ومَا أيِّدَ بِهِ هَذِهِ المِلَّةَ[٢]، حَتَّىٰ عَجَزَ الأَهْلُ عَنْ مَقَامِهِ، وتَقَاعَدُوا عَنْ إِقْدامِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ يُقَدِّمُ عَلَيهِ شَخْصًا، أَوْ يُفَضِّلُ عَلَيْهِ أَحَدًا![٣].

أذيَّةُ الخَلْقِ بِسُوءِ الرَّأْيِ

مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ وَأَقْبَحِهَا أَنْ تَغُرَّ أَخَاكَ بِفِعْلٍ، حَتَّىٰ إِذَا فَعَلَهُ عُدتَ بِفِعْلِهِ ذَامًّا ومُعَيِّرًا، وهَذَا عقوبَةٌ مِنَ اللهِ عَظِيمَةٌ، ومُقَابَلَتُهُ سَرِيعَةٌ؛ لأَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - جَعَلَكَ إِهْدَاءً إِلَىٰ الخَيْرِ والشَّرِّ بِقُوَّةِ الرَّأْيِ، فَصَرَفْتَ القُوَّةَ - الَّتي هِيَ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ - إِلَىٰ إِغْوَاءِ أَخِيكَ وَغُرُورِهِ؛ حَتَّىٰ إِذَا وَقَعَ في وَرْطَتِهِ[٤]، وَاسْتَحْكَمَتْ مُصِيبَتُهُ بِمَا دَلَّسْتَ[٥] عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ - زِدْتَهُ بالمعيرة بَلاءً، واللهُ مُطَّلِعٌ، وَهُوَ المُعْطِي السَّالِبُ[٦]، وَمِنْ أَحَدِ عُقُوبَاتِهِ اسْتِرْجَاعُ نِعْمَتِهِ، وتَرْكُكَ

---

(١) انتَحَلَ نِحْلَةً - بالكَسْرِ - : ادَّعَىٰ دَعْوَىٰ.

(٢) المِلَّة - بالكسر - : الشَّريعة أو الدِّين. (٣) الفنون (١ / ٢٧٨).

(٤) الوَرْطَة - بالفتح - : كُلُّ أَمْرٍ تَعْسُرُ النَّجاةُ مِنْهُ، والجَمْعُ وِراطٌ.

(٥) دَلَّسْتَ: كَتَمْتَ وأَخْفَيْتَ. (٦) صوابُهُ «المانع»؛ فإنَّ السَّالِبَ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ.

تَتَعَثَّرُ في أُمُورِكَ، وَتَتَخَبَّطُ عَشْوَاءَ[١] في آرائِكَ، فاللهَ اللهَ في أَذِيَّة عِبَادِه؛ فَإِنَّهُ بالمِرْصَادِ[٢][٣].

التَّسْليمُ لأمرِ الله وتَحْكيمُ حِكْمَتِه

أَنْتَ أَبَدًا تَنْسَىٰ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ عِنْدَ كَلامِكَ في الله، واعْتِرَاضِكَ عَلَيْه، ولَوْ ذَكَرْتَ مِقْدَارَكَ بالإِضَافَةِ إِلَيْه، تَكَلَّمْتَ كَلامًا صَغيرًا بحَسَبِكَ، ولا تَتَكَلَّم كِبَارًا بِقَوْلِ: «لِمَ»، و«كَيْفَ»، و«لَوْ صَنَعَ هَذا لَكَانَ أَحْسَنَ وَأَتْقَنَ»، و«لَوْ قَالَ كَذَا لَكَانَ أَفْصَحَ»، العَامَّةُ تَقُولُ: «لَعَنَ اللهُ صَبِيًّا أَكْبَرَ مِنْ أَبِيه»، ولَكِنْ مَا أَوْقَعَ اللَّعْنَ في حَقِّ عَبْدٍ أَكْبَرَ مِنْ سَيِّدِه، وَمَخْلُوقٍ يَتَكَبَّرُ عَلَىٰ خَالقِه، وَمُحَكَّمٍ يتَحَاكَمُ عَلَىٰ مُحكِّمِه!، مَا بَلَغَ عِلْمُكَ إِلَىٰ الحَدِّ الَّذي يَزْرِي[٤] عَلَىٰ عُلُومِ الشَّرْعِ، وَتَدَابيرِ هَذَا الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، ولَكِنْ هَذَا كُلُّهُ وأَمْثَالُهُ دَخَلَ مِنْ بَابِ جَهْلِكَ بِنَفْسِكَ، ولَوْ عَلِمْتَ مِقْدَارَكَ لعَلِمْتَ مِقْدَارَ صَانِعِكَ[٥]، إمَّا تَعْظِيمًا لِنَفْسِكَ،

---

(١) العَشْوَاء - بالفتح -: النَاقة الَّتي لا تُبْصِرُ أَمَامَهَا، فهي تَخْبِطُ بِيَدَيْهَا كُلَّ شَيءٍ، يُقالُ: فُلانٌ خَابِطٌ خَبْطَ عَشْوَاءَ: إذَا رَكِبَ أمرَهُ عَلَىٰ غيْرِ بَصيرةٍ.

(٢) المِرْصَادَ - بالكسر -: المكان يُرْصَدُ (أيْ: يُرْقَبُ) فيه العَدُوُّ.

(٣) الفنون (١/ ٢٧٩). (٤) يَزْرِي: يَعيبُ.

(٥) يُوصَفُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بِأَنَّهُ صَانِعُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهذَا ثَابتٌ بالكتاب والسُّنَّة، ولَيْسَ الصَّانِعُ مِنْ أَسْمَائه - تَعَالَىٰ - ومما يدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الصَّانِعَ مِنْ صِفَاتِ الله قوله - تَعَالَىٰ -: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. وعَنْ حُذَيْفَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «إِنَّ اللهَ يصْنَعُ (صنع) كل صانع وصنعته» رواه البخاريُّ في «خلق أفعال العباد» (١١٧)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٦٣٧).

فَعظِّمْ مَنْ صَنَعهَا، أَوِ اسْتِزْرَاءً(١) لَهَا، فلا تَتَحَاكَمْ عَلَىٰ مُحكِّمِهَا، فأَنْتَ في كِلا الحَالَيْنِ مُعَظِّمًا لِنَفْسِكَ، أَوْ مُعَلِّلاً لَهَا، لا يَنْبَغِي أَنْ تَبْدُرَ مِنْكَ بَادِرَةٌ(٢) اعْتِرَاضٍ عَلَيْه، ولا تَتَحَاكَمْ، لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْكَ بِحُكْمِ الصِّيغَةِ أَنْ تُسْلِمَ لأَفْعَالِه، وَتُحَكِّمَ حِكْمَتَهُ(٣).

التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ

سَيِّدي، قَدْ تَدَبَّرْتُ الخَلْقَ(٤)، فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُمْ إِلاَّ صَانِعًا أو مُصَانِعًا(٥)، وَرَأَيْتُ جُلَّ(٦) غَرَضِهِمْ وأَكْبَرَ هَمِّهِمُ الدُّنْيَا، وكُلٌّ مِنْهُمْ قَدِ اعْتَمَدَ عَلَىٰ ذَخِيرَةٍ(٧)، فَهَذَا يَدَّخِرُ العَقَارَ(٨)، وَهَذَا يَدَّخِرُ العَقَّارَ(٩)؛ فَهَذَا يَقْتَنِي الدِّرْهَمَ والدِّينَارَ، وَهَذَا يَدَّخِرُ مَعَارِفَ الرِّجَالِ، وَرَأَيْتُ كُلاً مِنْهُم عِنْدَ الْمَوْتِ يَفْزَعُ إِلَىٰ اسْمِكَ، وَتَوْحِيدِكَ، والتَّعَلُّقِ بِأَذْيَالِ عَفْوِكَ، فَرَأَيْتُهُمْ بِعَيْنِ الإِفْلاسِ مِنَ الرَّأْيِ؛ حَيْثُ لَمْ يُقَدِّمُوا مِنْ أَمْرِهِمْ مَا أَخَّرُوا، وَتَعَجَّلُوا مِنَ التَّعَلُّقِ بِكَ مَا أَجَّلُوا، فَكُنْتُ - إِذَا فَرِحَ النَّاسُ بِمَوْجُودِهِمْ مِنْكَ، وعُنُوا(١٠) بِمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ لَدُنْكَ - غَنِيًّا

(١) الاستزراء: الاستحقار.
(٢) البادرة : ما يَبْدُرُ مِنْ حِدَّتِكَ في الغَضَبِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، والجَمْعُ بَوَادِرُ.
(٣) الفنون (١ / ٢٧٧).
(٤) تَدَبَّرْتُ الخَلْقَ: تَفَكَّرْتُ فيهم ونظرتُ إِلَىٰ مَا تَئُولُ إليه عَاقِبَتُهُمْ.
(٥) المصانعُ: مَنْ يَصْنَعُ لغَيْرِه شَيْئًا؛ لِيَصْنَعَ لَهُ شَيْئًا آخَرَ.
(٦) الجُلُّ - بالضَّمِّ -: مُعْظَمُ الشَّيْءِ.
(٧) الذَّخيرة - بِزِنَة صحيفةٍ -: مَا ادُّخِرَ، ذَخَائِرُ.
(٨) العَقَار - بالفتح مُخَفَّفًا -: الضَّيْعَة.
(٩) العَقَّار - بِزِنَة العَطَّار -: واحدُ العَقَاقير، و هي أُصُولُ الأَدْوِيَة.
(١٠) عُنُوا - عَلَىٰ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ -: اعْتَنُوا وَاهْتَمُّوا.

بوُجُودِكَ، مُعَوِّلاً عَلَىٰ شُهُودِكَ، مُدَّخِراً لَكَ في شَدَائِدي، مُعَوِّلاً عَلَيْكَ في أَوابدي[١]، فَمَا خَابَ قَطُّ أَمَلي فيكَ، ولا رَجَائي في لُطْفِكَ؛ بَلْ وَجَدْتُكَ في شَدَائِدِ الدُّنْيا آخِذاً بِضَبْعِي[٢]؛ إنْ عَثَرْتُ أَنْعَشْتَ، وإنِ افْتَقَرْتُ أَغْنَيْتَ، وَإِنْ سَقِمْتُ عَافَيْتَ وَشَفَيْتَ، وإنْ تَشَرَّدْتُ آوَيْتَ، وإنْ عَطِشْتُ أَرْوَيْتَ، وإنْ جُعْتُ أَطْعَمْتَ، وإنْ ضَلَلْتُ هَدَيْتَ، فأَنْبَأَنِي عَنْكَ عَاجِلُ أَمْري، وَحَدَّثَتْني آمَالي فيكَ عَنْ تَوَاني[٣] أَحْوَالِي مَعَكَ، فَهَا أنا لا أَرْجُو سِوَاكَ، ولا آمُلُ غَيْرَكَ، ولا تَعْبُدُ أَطْمَاعِي أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، وطَالَمَا عَبَدْتُ؛ لأَنَّني كُنْتُ بِصُورَةِ مَنِ اسْتُقْرِئَ طُرُقَ الطَّلَبِ حَتَّىٰ وَجَدْتُ، وأُنحتُ عَنْ طَرِيقٍ سَليمٍ إِلَيْكَ حَتَّىٰ ظَفِرْتُ[٤]، وَلَمْ أَجِدْ ذَلِكَ إِلاَّ في خُبْري[٥] بِخَلْقِكَ، وأَنَّهُمْ مَفَاليسُ مِنْ كُلِّ ضَرٍّ وَنَفْعٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ وُقُوفي مَعَهُمْ حَالَ تَصَفُّحِي لأَحْوَالِهِمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مِنْ شِرْكِي حَالَ الاعْتِمَادِ عَلَيْهِم اخْتِبَاراً لَهُمْ، وأَقْطَعُ زَنَانيرَ الإِضَافَاتِ لَهُمْ[٦].

﴿ وَاجعَلُوا بيُوتَكُم قِبْلَةً ﴾

قَالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس: ٨٧]، قِبْلَةً: جِهَةً للطَّاعَاتِ، ومُسْتَقْبَلاً لله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ في العِبَادَاتِ.

وَمَنْ كَانَ مَأْموراً أَنْ يَجْعَلَ بَيْتَهُ قِبْلَةً ـ وَهُوَ مَوْضِعُ الغَفْلَةِ وَمَنَاخُ البَطَالَةِ ـ

---

(١) الأَوَابِدُ: جَمْعُ آبِدَةٍ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ يَبْقَىٰ ذِكْرُهَا عَلَىٰ الأَبَدِ.

(٢) الضَّبْع ـ بالفتح ـ: العَضُد، والجمع أَضْبَاع.

(٣) تواني: تقْصير.

(٤) الظَّفَرُ: الفوزُ بالمطلوب، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٥) الخُبْر ـ بالكسر والضَّمِّ ـ : العِلْم بالشَّيْء.

(٦) «الفنون» (١ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

أَوْلَىٰ أَنْ يَعْقِلَ عَنِ اللهِ أَنْ يَجْعَلَ مَوَاطِنَ العِبَادَاتِ مُحْتَرَمَةً عَنْ تَبْدِيلِهَا بِأُمُورِ الدُّنْيَا، وأَرَىٰ أَهْلَ زَمَانِنَا جَعَلُوا مَسَاجِدَهُمْ مَتَاجِراً وأَسْوَاقًا، وَجَعَلُوا بُيُوتَهُمْ قُبُوراً(١).

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾

قَدْ عُرِفَ مَحَلُّ الأَقْوَالِ والأَفْعَالِ بِالْوَحْيِ فِي حَقِّ أَقْوَامٍ عَاصَرُوا النُّبُوَّاتِ، هَذَا يَقُولُ فِي عَظْمٍ نَخِرٍ: «هَذَا يَحْيَىٰ؟!» فَيُنْزِلُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فِيهِ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨].

وَهذَا يَقُولُ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فَيُمِيتُهُ مائَةَ عَامٍ، ثُمَّ يَبْعَثُهُ، فَيَقُولُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦].

وهَذا يَرْفَعُ صَوْتَهُ، فيُقال: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحُجُرات: ٢].

فَلَوْ كَانَ الوَحْيُ مُتَّصِلاً، لَساءَكَ مَا يَنْزِلُ فيكَ عِنْدَ فَرَطَاتِكَ وَغَلَطَاتِكَ، وتَهَجُّمِكَ بالاعْتِرَاضِ والقَوْلِ الَّذي لا تَحْتَمِلُهُ الحِكْمَةُ مِنْكَ؛ فإِنْ فَاتَكَ الوَحْيُ في جَوابِ كَلِمَاتِكَ وَتَصَرُّفَاتِكَ، فلا تَفُتْكَ مُوازَنَةُ مَا تَقُولُ وتَفْعَلُ بما نَزَلَ مِثْلُهُ العُتْبَىٰ والْعُقُوبَةُ، فإِذا وَازَنْتَ عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ عِنْدَ اللهِ جَوابًا لَمْ يَفُتْكَ مِنْهُ إِلاَّ تَعْجِيلُهُ، وأَنَّهُ مُؤَجَّلٌ لَكَ إِلَىٰ وَقْتٍ يَسُوؤُكَ المُوافَقَةُ فَضْلاً عَنِ المُقَابَلَة.

(١) «الفنون» (١/ ٢٨٣).

وَلَوْ أَنْصَفْتَ نَفْسَكَ اليَوْمَ، لكَانَ في حَوَادِثِ الأَيَّامِ مِنْ دَلائِلِ القُدْرَةِ وَمُتْقَنَاتِ الحِكْمَةِ - مَا يَكُونُ لَكَ جَوَابًا، ولِشُبْهَتِكَ مُزِيلاً.

فَإِنْ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِكَ، أَوْ جَرَىٰ في قَوْلِكَ ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي﴾ [البقرة: ٢٥٩]، كانَتْ سَحَائِبُ السَّمَاءِ بوَابِلِها[١] أَلْسُنًا نَاطِقَةً بالتَّهْجِينِ لَكَ، حَيْثُ حَبَّىٰ بِهَا عُشْبُ الأَرْضِ ونَبَاتُها، وزَهْرَتُهَا، حَتَّىٰ عَادَتْ عُيُونًا مُحَدِّقَةً[٢]، وذَوَاتًا مُحَقِّقَةً، تَشْهَدُ لِصَانِعِها بالقُدْرَةِ، ولِمُحْكِمِها ومُتْقِنِهَا بالحِكْمَةِ![٣].

تَنَافُرُ النَّاسِ

تَذَاكَرْنَا في بَعْضِ مَجَالِسِ المُذَاكَرَاتِ والمُقَابَسَاتِ: مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ تَنَافُرُ النَّاسِ في مَقَادِيرِ الإِكْرَامِ مِنَ الهَشَاشَةِ[٤] والقِيَامِ إِلَىٰ ما شَاكَلَ[٥] ذَلِكَ عِنْدَ التَّلاقي؟، وما يَنْبُوعُ التَّنَافُسِ في المَجَالِسِ والتَّشاجُرِ في المَنَاصِبِ عِنْدَ الاجْتِمَاعِ؟. قَالَ عالِمٌ: أَقُولُ - وباللهِ التَّوْفِيقُ لإِصابَةِ الغَرَضِ -: إِنَّ النَّاسَ مُتَفَاوِتُونَ في الأَقْدَارِ بِحَسَبِ أَسْبَابِ الأَقْدَارِ، وكُلٌّ مِنْهُمْ يَرَىٰ السَّبَبَ الَّذي يَمُتُّ به بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ، كالنَّسِيبِ يَرَىٰ نَسَبَهُ، فَيَرْفَعُهُ في عَيْنِ نَفْسِه، فَيَمْتَلِئُ بِه، حَتَّىٰ إِنَّهُ يَرَىٰ انْحِطَاطَ كُلِّ مَنْ دُونَهُ؛ سِيَّمَا إِنْ أَعَانَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ تَوَحُّدُهُ بالنَّسَبِ في مَحَلَّتِه أو دَرْبِه الَّذي يَسْكُنُهُ، فَيُخَاطَبُ بالسَّيِّدِ والشَّرِيفِ، ويَتَقَاصَرُ لَهُ مَنْ دُونَهُ في نَسَبِه تَقَاصُرًا يُوجِبُهُم انْحِطَاطَ رُتَبِهِمْ عَنْ نَسَبِه، فَيَأْلَفُ الإِكْرَامَ مِنْ أُولَئِكَ الأَقْوَامِ، فَيَخْرُجُ إِلَىٰ مَنْ يَرَىٰ

---

(١) الوابل: المَطَرُ الشَّدِيدُ الضَّخْمُ القَطْرِ.
(٢) مُحَدِّقَة: شَدِيدة النَّظَرِ.
(٣) «الفنون» (١/ ٢٨٩).
(٤) الهَشَاشَة - بالفتح -: مصدر هشَّ بِفُلانٍ - من بابي فَرِحَ وضَرَبَ -: إذا خَفَّ إليه وارتاح له وفَرِحَ به.
(٥) شاكل: شابه وماثل.

نَفْسَهُ بِنَوْعٍ آخَرَ مِنَ الفَضْلِ؛ كَعَالِمٍ بَيْنَ جُهَّالٍ، يَدْأَبُ[(١)] نَفْسَهُ في العُلُومِ، ويَجْهَدُهَا في تَخْلِيصِ الفهومِ، فَيَتقاصَرُ عَنْهُ جِيرَتُهُ وأَهْلُ مَحلَّتِه وَعَشِيرتُهُ تَقَاصُرَ الجُهَّالِ للعالِمِ، فيَرَىٰ لِنَفْسِه حَقًّا عَلَىٰ مَنْ جَهِلَ عِلْمَهُ، وإِنْ كَانَ نَسِيبًا، فَيَخْرُجُ إِلَىٰ ذَلِكَ النَّسِيبِ، وآخَرَ يَنْقَطِعُ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّه، وَيَتَصَوَّرُ بِإِدْمَانِ الخَلْوَةِ أَن لا رُتْبَةَ تَسْتَحِقُّ الإِكْرَامَ دونَ رُتْبَتِهِ، ويُخِلُّ بِإِدْمَانِ الخلوةِ آدَابَ المُخَالَطَةِ فَيَخْرُجُ عَلَىٰ مَا بِهِ.

وآخَرَ يَتَمَيَّزُ بِنَوْعِ حِدَّةٍ[(٢)]، وغنيٌّ بَيْنَ فُقَرَاءَ رُبَّمَا وَاسَاهُمْ فَأَكْرَمُوهُ لِمُواسَاتِه، أَوْ للطَّمَعِ فِيهِ، فَيَضْرَعُونَ لَهُ ضَرَعَ الطَّامعِينَ للمَطْمُوعِ فيه، فَيَخْرُجُ عَلَىٰ مَا بِهِ، حَتَّىٰ إِذَا جَمَعَ هَؤُلاءِ مَجْلِسٌ، تَرَفَّعَ كُلُّ وَاحِدٍ بِامْتِلائِه بخصيصته، فَيَقَعُ التَّنَافُرُ بَيْنَهُمْ.

والمعدّلُ لِهَذِهِ الأَحْوَالِ هُوَ العَقْلُ الَّذي يَحْصُلُ بِهِ الإِنْصَافُ لِمَنْ أَنْصَفَ، أَوِ المُسَامَحَةُ لِمَنْ قَصَّرَ في الحَقِّ وَطَفَّفَ[(٣)]، فالعَاقِلُ يَزِنُ نَفْسَهُ بزينتها، فَإِنِ اجْتَمَعَ بِهِ مُنْصِفٌ، رَضِيَ بِمَا ظَهَرَ مِنْ إِنْصَافِه، فَقَدْ زَالَ الخِلافُ بَيْنَهُمَا، وإِنِ اجْتَمَعَ بِهِ مُتَحَيِّفٌ[(٤)] مُتَعَجْرِفٌ[(٥)]، جَاهِلٌ بِمِقْدَارِ غَيْرِهِ لامْتِلائِه بِرُؤْيَةِ نَفْسِه – أَلانَ لَهُ هَذَا العَاقِلُ جَانِبَهُ وَسَامَحَهُ، فَتَرَكَ الاقْتِضَاءَ[(٦)] بِحَقِّ نَفْسِه، ووَفَّىٰ ذَلِكَ الجَاهِلَ حَقَّهُ، وَزَادَهُ ما يُرْضِيهِ بِهِ مِنَ الإِكْرَامِ، والعَقْلِ سَكَّانُ كُلِّ شَغَبٍ وَفَسَادِ اعْتِدَالٍ.

وَأَرَىٰ الْعَاقِلَ – إِنْ كَانَ ذَا سُلْطَانٍ ويُدَانُ[(٧)]– لا يُسَامِحُ؛ بِخِلافِ الأَمْثَالِ مِمَّنْ لا سُلْطَانَ لَهُ، وإِنَّمَا فَرَّقْتُ بَيْنَ السُّلْطَانِ المُتَسَلِّطِ وَبَيْنَ المُمَاثِلِ؛ لأَنَّ المُمَاثِلَ اسْتَحْبَبْنَا لَهُ التَّوَاضُعَ والمُسَامَحَةَ؛ كَيْلا يَقَعَ الخُلْفُ، وَيَنْشَأَ الشَّغَبُ وَالْفَسَادُ.

---

(١) دَأَبَ في العلوم: جَدَّ وَتَعِبَ، وبَابُهُ مَنَعَ وَخَضَعَ.
(٢) الحِدَّة – بالكسر – : ما يَعْتَرِي الإنْسانَ مِنَ الغَضَبِ والنَّزَقِ والطَّيشِ.
(٣) طَفَّفَ: نَقَصَ المِكْيَالَ.
(٤) المُتَحيِّف: الجائرُ الظَّالم.
(٥) المُتَعَجْرِفُ: المُتَكَبِّر.
(٦) الاقتضاء: الأَخْذ.
(٧) يُدَان: يُطَاع.

فَأَمَّا السُّلْطَانُ؛ فإِنَّهُ إذا قَوَّمَ المُتَأَوِّدَ (١)، وَحَقَّقَ عَلَىٰ المُتَعَجْرِفِ، وَرَدَّ كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِ اسْتِطَالَتِهِ إِلَىٰ حَدِّهِ وَرُتْبَتِهِ - أُمِنَتْ غَوَائِلُ(٢) تَحْقِيقِهِ عَلَىٰ رَعَايَاهُ؛ لِقُوَّتِهِ وَتَسَلُّطِهِ.

فَكَمَا أَنَّهُ يُحَقِّقُ مَقَادِيرَ الرِّجَالِ، يُقَوِّمُ مَنْ تَعَدَّىٰ عِنْدَ تَحْقِيقِ هَذِهِ الحَالِ، وَيَنْتَفِعُ بِتَقْوِيمِهِ جَمَاعَةُ المُسْتَطِيلِينَ والمُسْتَطَالِ عَلَيْهِمْ؛ لأَنَّ المُسْتَطِيلَ بِجَهَالَتِهِ لا يَخْلو مِنْ مُغَالِبٍ لَهُ وَمُصَاوِلٍ، وَصَوْلُ السُّلْطَانِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَوْلِ الرَّعَايَا؛ لأَنَّ السُّلْطَانَ يَمْنَعُ المُنَافَرَةَ بَيْنَ الرَّعَايَا، وَصَوْلُ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يُفْضِي إِلَىٰ التَّهَارُجِ(٣)، وَأَقْبَحُ بِالعَاقِلِ أَنْ يَحُوجَ إِلَىٰ تَقْدِيمِ السُّلْطَانِ؛ لأَنَّهُ يُفْضِي إِلَىٰ دَوَامِ تَأْدِيبِهِ؛ لأَنَّهُ حَالَ الطُّفُولَةِ تَحْتَ أَدَبِ الوَالِدَيْنِ مُقَوَّمٌ بِتَقْوِيمِهِمَا، وَبَعْدَ أَنْ شَبَّ وَتَرَعْرَعَ صَارَ تَحْتَ حِجْرِ(٤) المُعَلِّمِ وَالأُسْتَاذِ، فإِذا كَبِرَ وَشَابَ صَارَ تَحْتَ حِجْرِ السُّلْطَانِ، لا يَسْتَغْنِي عَنْ تَقْوِيمِهِ، فَمَتَىٰ يَخْرُجُ هَذَا مِنْ حِجْرِ الرِّجَالِ؟!.

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لا يَكُونُ رَاعِيًا لِنَفْسِهِ قَطُّ، بَلْ غَيْرُهُ يَرْعَاهُ، فَهَذَا كَالسَّوَائِمِ(٥)، فَمَا الَّذِي أَفَادَهُ العَقْلُ؟!، ومَا الَّذي هَذَّبَ مِنْهُ الشَّرْعُ؟!.

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ خِذْلانٍ(٦) يَحْمِلُ عَلَىٰ تَرْكِ الانْحِيَاشِ(٧) للهِ، والكَوْنِ تَحْتَ تَصْرِيفِهِ وَتَأْدِيبِهِ، والرِّضَا بِالكَوْنِ تَحْتَ حُجْرِ المَخْلُوقِينَ والأَمْثَالِ!(٨).

---

(١) المُتَأَوِّد: المُتَعَوِّج.
(٢) الغَوَائِل: جمع غائلةٍ، وهي الفساد والشَّرُّ.
(٣) التهارج: الفتنة والاختلاط والقتل.
(٤) يُقالُ: هُو في حِجْرِ فُلانٍ - بالفتح والكسر - : أي في كَنَفِه وحِفْظِه ومَنْعِه.
(٥) السَّوائم: جمع سائمة، وهي الإبلُ الرَّاعيَة.
(٦) الخِذْلان - بالكسر - : مصدر خَذَلَه يَخْذُلُه - بالضَّمِّ - : إذا تَرَكَ عَوْنَه ونُصْرَتَه.
(٧) الانْحِيَاش لله: الاكْتِراثُ لَهُ، والمُبَالاة به.
(٨) «الفنون» (١/ ٢٨٦ - ٢٨٩).

المُخَالَطَةُ لِبَعْضِ النَّاسِ دَوَاءٌ وَلِبَعْضِ النَّاسِ أَدْوَاءٌ

تَذَاكَرْنَا فِي بَعْضِ المَجَالِسِ أَمْرَ المُصَابِ: هَلِ الأَفْضَلُ تَحَفُّزُهُ عَنِ النَّاسِ وَاعْتِزَالُهُ، أَوْ تَكَشُّفُهُ وَظُهُورُهُ؟.

فَقَالَ بَعْضُ الحَاضِرِينَ: بَلْ ظُهُورُهُ؛ لِيَتَسَلَّىٰ بِكَلَامِ المُعَزِّينَ[1]، وَيَتَشَاغَلَ عَنْ أَنْ يَخْلُوَ بِهِ الحُزْنُ، فَيَعْمَلُ فِي نَفْسِهِ، وَيَنْكِي[2] قَلْبَهُ - خَيْرٌ مِنَ الانْفِرَادِ؛ فَإِنَّ المُنْفَرِدَ يَخْلُو بِمُصَابِهِ، وَيَتَشَكَّلُ لَهُ المُصَابُ بِهِ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، فَلَا يَزَالُ يَعْمَلُ فِي صِفَاتِهِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ عَلَىٰ مَقَاتِلِهِ[3].

وَقَالَ آخَرُ: بَلِ انْفِرَادُهُ؛ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ كُلْفَةِ التَّجَمُّلِ وَالتَّعَمُّلِ[4]؛ لأَنَّهُ رُبَّمَا أَرَادَ إِظْهَارَ التَّجَلُّدِ لِحَاسِدٍ، وَالتَّعَمُّلِ لِحَكِيمٍ نَاهٍ لَهُ عَنِ الجَزَعِ، وَالتَّبَاكِي[5] فِي غَيْرِ أَوَانِ الْبُكَاءِ خَوْفَ عَيَّابٍ لَهُ عَلَىٰ الصَّبْرِ، فَإِنَّ كَمَا فِي النَّاسِ عَائِبٌ عَلَىٰ الحُزْنِ وَالجَزَعِ - وَهُمْ أَعْدَادٌ مِنْ أَهْلِ الشَّرْعِ وَالحِكْمَةِ - كَذَلِكَ فِيهِم عَيَّابٌ عَلَىٰ التَّمَاسُكِ؛ لأَنَّهُمْ يَعُدُّونَ ذَلِكَ قِلَّةَ وَفَاءٍ وَإِلْفٍ، وَحَبَاسَةَ طَبْعٍ، وَقَسَاوَةَ قَلْبٍ، وَكِلَاهُمَا عَيْبٌ، وَمَا أَشْغَلَ المُصَابَ المُحْزَنَ بِحُزْنِهِ عَنْ تَكَلُّفِ هَذِهِ الأُمُورِ، وَتَحَمُّلِ هَذِهِ الأَثْقَالِ!، نَعَمْ، وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ إِنْ قَصَّرَ بِحَقٍّ قَاصِدٍ، فَالْوَيْلُ لَهُ مِنَ القَاصِدِ، يَنْسُبُهُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ الْكِبْرِ وَالخُيَلَاءِ وَالْعَجْرَفَةِ!.

---

(١) المُعزِّين: المُصبِّرين. (٢) يَنْكي: يَجْرَح.

(٣) مقاتل الإنسان: المواضع الَّتي إذا أُصيبتْ قَتَلَتْهُ، واحدُها مَقْتَلٌ.

(٤) التَّعَمُّل: التَّعنِّي. (٥) التَّبَاكي: تكلُّف البُكَاء.

وَجَرَىٰ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ تَخْلِيطٌ كَثِيرٌ وَمُدَاخَلَةٌ وشَغَبٌ، فَقَالَتِ الجَمَاعَةُ لي: مَاذَا تقُولُ أَنْتَ؟.

قُلْتُ - وباللهِ التَّوْفِيقُ - : أَنَا أُفَصِّلُ تَفْصِيلاً يُصْلِحُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، لا يَقْتَضِي الجَوَابُ سِوَاهُ، وإِنَّمَا يَقْتَضِي الجَوَابُ تَفْصِيلاً لاخْتِلافِ أَحْوَالِ النَّاسِ في ذَلِكَ، وَجَوَابُ الإِجْمَالِ فِيمَا يَقْتَضِي التَّفْصِيلَ كَالتَّفْصِيلِ لِمَا لا يَقْتَضِي التَّفْصِيلَ. فَأَقُولُ: مَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ الجَزَعَ، وعَلِمَ مِنَ القَاصِدِينَ لَهُ إِعَانَةَ النَّفْسِ عَلَىٰ الجَوْرِ[١] والجَزَعِ دُونَ إِعَانَةِ الدِّيْنِ عَلَىٰ الصَّبْرِ والسَّلْوَةِ، فالاعْتِزَالُ أَوْلَىٰ بِهِ؛ لأَنَّ الْعُزْلَةَ تَقْطَعُ عَادَتَهُ تَثْوِيرَ التَّسَخُّطِ عَلَىٰ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وإِنْهَاضَ النَّفْسِ عَلَىٰ جَزَعِهَا.

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَلا خَلا بِهِ الشَّيْطَانُ، وَهَاجَتْ أَحْزَانُهُ - كَانَ اجْتِمَاعُهُ بِمَنْ يَعْلَمُ مِنْهُ التَّسْلِيَةَ والتَّعْزِيَةَ أَحْرَىٰ مِنْ وُحْدَتِهِ؛ لأَنَّ المُخَالَطَةَ لِبَعْضِ النَّاسِ دَوَاءٌ، ولِبَعْضِ النَّاسِ أَدْوَاءٌ، وَفِي الجُمْلَةِ: العُزْلَةُ عَنِ الأَخْيَارِ مَذْمُومَةٌ، وَعَنِ العُلَمَاءِ مَشْئُومَةٌ، والاجْتِمَاعُ بِهِمْ بَرَكَةٌ وَاسْتِشْفَاءٌ[٢].

تَجَرُّعُ مَرَارَةِ الأَدَبِ

أَسْتَشْعِرُ أَنَّكَ غَيْرُ مُنْفَكٍّ مِنْ تَحَمُّلِ أَثْقَالِ الخَلْقِ: في حَالِ الشَّبِيبَةِ مُكَابَدَةُ الآدَابِ للمشَايِخِ، وفي حَالِ كِبَرِكَ تَحَمُّلُ أَثْقَالِ الصَّبْرِ عَلَىٰ الأَصَاغِرِ[٣]، وَهَلْ

(١) الجَوْر: الظُّلْم، وبابُهُ قَالَ.

(٢) «الفنون» (١ / ٢٩١).

(٣) الأصاغر: الأَصْغَرونَ.

وَجَدَ الصُّدُورُ حَلاوَةَ التَّصَدُّرِ[١] إلاَّ بالصَّبْرِ علَىٰ مَرارَةِ التَّخَلُّقِ بالحِكْمَةِ؟، وَهَلْ حُلْوُ الحِكْمَةِ إلاَّ تَجَرُّعُ مَرارَةِ الأَدَبِ في الصِّغَرِ، ومُكَابَدَةُ غُصَصِ الحِلْمِ عَنِ السُّفَهاءِ حَالَ الكِبَرِ؟، وَقَلَّ أَنْ تَحْصُلَ الرِّئَاسَةُ لِمَنْ لا يَتحَمَّلُ أَثْقَالَ السِّيَاسَةِ.

وفي الجُمْلَةِ والتَّفْصيلِ: لا مُسْتَفَادَ إلاَّ بإنْفَاقِ حَاصِلٍ؛ وإنَّمَا يَتَرَجَّحُ الحَاصِلُ عَلَىٰ الإنْفَاقِ بِنَوْعٍ مِنْ رِبْحٍ فَيَسْهُلُ، وَإلاَّ فَالعُلُومُ المُكْتَسَبَةُ إنَّمَا تُتَحَصَّلُ بإنْفَاقِ الأَعْمَالِ، كَمَا أَنَّ الرِّئَاسَةَ تَتَحَصَّلُ بِبَذْلِ الدِّرْهَمِ والدِّينَارِ، ومَا نَالَتِ النَّفْسُ قَطُّ لَذَّةً إلاَّ بِنَوْعِ نَغْصَةٍ، ولَوْ عَلِمَ العُقَلاءُ ما في الزُّهْدِ مِنَ الرَّاحَةِ، لَكَسَدَتْ سُوقُ الدُّنْيَا عَنْ رَاغِبٍ، وَتَعَنَّسَتْ بَهْجَتُهَا عَنْ خَاطِبٍ، وَمَا أَخَذَ بِالْعَزْمِ وَلا الحَزْمِ مَنْ خَاطَرَ بِنَفِيسٍ مَا تَحَصَّلَ فيما عَسَاهُ لا يَتَحَصَّلُ، وإنْ كَانَتِ المُخَاطَرَةُ عُلُوَّ هِمَّةٍ، فَالْبُخْلُ نَوْعٌ مِنَ الحَزْمِ[٢].

مَنَازِلُ الأَسْلافِ

إنَّ امْرَأً لَوْ تَتَحَصَّلُ لَهُ العِبْرَةُ بَيْنَ مَنَازِلِ الأَسْلافِ[٣] والأَحْبَابِ الدَّائِرَةِ وَبَيْنَ رِمَمِهِمْ[٤] في التُّرَابِ عِظَامًا نَاخِرَةً[٥] ـ لَكَشَفَ الحِجَابَ عَنِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، لَوْ كَانَ الحزنُ مُكْتَسَبًا، لَكَانَ هَذا مِنْ آكَدِ أَسْبَابِ الاكْتِسَابِ، فَكَيْفَ وهُوَ طَبْعٌ غَرِيزِيٌّ، وَخُلُقٌ طبعِيٌّ، ولا يُحَرِّكُهُ مِثْلُ هَذا المُزْعِجِ المَهُولِ؟!.

(١) التَّصَدُّر: الجُلُوس في صَدْرِ المَجْلِسِ (أي: مُقَدِّمَتِهِ).

(٢) «الفنون» (١/ ٢٩٥).

(٣) الأَسْلاف: جَمع سَلَفٍ ـ بالتَّحريك ـ، وهو كُلُّ مَنْ تَقدَّمكَ مِنْ آبَائِكَ وَقَرابَتِكَ، ويُجْمَع ـ أَيضًا ـ عَلَىٰ سُلَّافٍ.

(٤) الرِّمَم: جمع رِمَّةٍ ـ بالكسر ـ، وهي العِظَام البَالية.

(٥) ناخِرَة: بالية مُتَفَتِّتَة.

نَعَمْ، هَذا ولا خَلَفَ بِهِ يَتَسَلَّىٰ، ولا عِوضَ عَنْهُمْ بِهِ يَتَعَزَّىٰ[١]، بَلْ دِيَارٌ مِنَ الأَهْلِينَ خَالِيَةٌ، وَأَجْسَادٌ في أَعْمَاقِ الأَرَضِينَ بَالِيَةٌ، وَآثَارٌ تَسْتَحْضِرُ لِلنُّفُوسِ، وَتَشَكَّلُ لِلْقُلوبِ مَاثِلَةٌ، فَوَاهًا[٢] عَلَىٰ عُمُرٍ مَضَىٰ لَيسَ لَهُ رُجُوعٌ، وَذَنْبٍ ثَابِتٍ مَا عَنْهُ نُزُوعٌ[٣]!، أُفٌّ[٤] لِحَسْرَةٍ وَعَبْرَةٍ[٥] لا تُعْقِبُ[٦] يَقظَةً وَعِبْرَةً![٧].

من لكَ بأخيكَ كُلِّه؟!

مِنَ الظُّلْمِ الصِّرْفِ[٨] والبَغْيِ البَحْتِ مُطَالَبَتُكَ صَفْوَ الوُدِّ مِنْ مَمْزُوجِ الخُلُقِ، إِنْ عَلِمْتَ أَنَّ في العَالَمِ مَنْ هُوَ صِرْفٌ؛ فَاطْلُبْ مِنْهُ الصِّرْفَ، هَذِهِ الأَطْعِمَةُ وَالأَشْرِبَةُ حُلْوُهَا وحَامِضُهَا وَمُرُّهَا - لا يُعْطِيكَ مَا يُشْهِيكَ[٩] - أَوْ يَشْفِيكَ - إِلاَّ وَيُكْسِبُكَ مَا يُمْرِضُكَ أَوْ يُوهِنُكَ[١٠]؛ لِمَا في مَطَاوِي اللَّذَّةِ مِنَ الطَّبْعِ الأَصْلِيِّ والمَزْجِ العُنْصُرِيِّ[١١]، فَمَا بَالُكَ تَطْلُبُ مَنْ يَحْلُو لَكَ شَهِيٌّ مَوَدَّتِه، وَطِيبُ أُنْسِه، وَدَعَةُ[١٢] رِضاهُ، ولا يُمِرُّكَ سَوْرَةُ غَضَبِه[١٣]، وَغَائِلَةُ مَلَلِه، وَقَوَارِضُ[١٤] حِدَّتِه،

---

(١) يَتَعَزَّىٰ: يَتَصَبَّر.

(٢) وَاهًا: كَلمة تَلَهُّفٍ وَتَحَسُّر.

(٣) نَزَعَ عَنِ الذَّنْبِ - مِنْ باب جَلَسَ - : انْتَهَىٰ عَنْهُ.

(٤) أُفٌّ - ولُغاتُها أَرْبَعُونَ - : كَلمة تَكَرُّه.

(٥) العَبْرَةَ - بالفتح - : الدَّمْعة قَبْلَ أَنْ تَفِيضَ، والجَمْع عَبَرَاتٌ وَعِبَر.

(٦) تُعْقِبُ: تُورِثُ.

(٧) «الفنون» (١/٢٩٦ - ٢٩٨).

(٨) الصِّرْفُ - بالكسر - : البَحْتُ الخالص.

(٩) أَشْهاهُ: أَعْطَاهُ مُشْتَهَاهُ.

(١٠) يُوهِنُكَ: يُضْعِفُكَ.

(١١) العُنْصُرِي - وَتُفْتَحُ الصَّادُ - : الأَصْلِيّ.

(١٢) الدَّعَةُ: كالسَّعَة زِنَةً ومَعْنىً.

(١٣) سَوْرَةُ الغَضَب - بالفتح - : حِدَّتُهُ.

(١٤) القَوَارِضُ مِنَ الكَلامِ: الَّتي تُنَغِّصُكَ وَتُؤْلِمُكَ.

وَفَوْرَةُ سَخَطِه[١]؟!، تُريدُ مَا في مِزَاجِه نارٌ وَلا يَحْرِقُ، وَمَا فيه مَاءٌ لا يَلينُ، وَمَا فيه طِينٌ لا يَثْقُلُ، وَمَا فيه هَوَاءٌ لا يَبْرُدُ!، بَلَىٰ - واللهِ - إِنْ أَهَاجَتْهُ النَّارُ، وحَرَّكَتْهُ السُّخُونَةُ، بَرَّدَهُ الهَوَاءُ، وَإِنْ بَرَّدَهُ الهَوَاءُ سَخَّنَتْهُ النَّارُ، وَإِنْ خَفَّ بالرُّوحِ ثَقُلَ بالجَسَدِ، وإِنْ عَدَلَ بالعَقْلِ جَارَ[٢] بالهَوَىٰ[٣].

ما أَحْسَنَ أَنْ تَكُونَ الفَضَائِلُ لَكَ!

ما لَمْ تَجِدْهُ في غَيْرِكَ، فَلا تَتَشَاغَلْ بالتَّعَجُّبِ مِنْ عُدْمِه، حَتَّىٰ تَجِدَهُ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ خُلُقًا تَحْمَدُهُ في غَيْرِكَ، وَوَجَدْتَ نَفْسَكَ تَتَطَلَّبُهُ، فَاكْتَسِبْهُ لِنَفْسِكَ، فَمَا أَحْسَنَ أَنْ تَكُونَ الْفَضَائِلُ لَكَ!، فَإِنْ عَجَزَتْ نَفْسُكَ عَنْ تَحْصِيلِ ذَلِكَ، فَكُنْ عَاذِراً لِمَنْ عَدِمْتَهَا فيْه وَمِنْهُ؛ لأَنَّكَ تَجِدُهُ قَدْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ في طَلَبِهَا، فَعَجَزَ كَعَجْزِكَ، واعْلَمْ أنَّ المَطَالِبَ أَقَلُّ مِنَ الطَّلَبِ، ففي نُفُوسِ العُقَلاءِ أُمُورٌ تَعْتَلِجُ[٤]، واقْتِضَاءَاتٌ تَخْتَلِجُ[٥]، لا يَقِفُونَ مِنْهَا عَلَىٰ طَائِلٍ[٦]، ولا يَجِدُونَ إِلَيْهَا - مَعَ تَوَفُّرِ حِيَلِهِمْ، وَجَوْدَةِ آرَائِهِمْ - سَبِيلاً، فَكُنْ أُسْوَتَهُمْ، وَتَسَلَّ بِهِمْ، فَمَا مِنهم إِلاَّ مَنْ رَامَ[٧] الحَيَاةَ الدَّائِمَةَ فَمَا حَظِيَ، وَرَامَ دَوَامَ الوُصْلَةِ بِأَحْبَابِه فَمَا مُلِّيَ[٨]، وَأَحَبَّ اسْتِقَامَةَ الأَحْوَالِ والصِّحَّةِ وَالاعْتِدَالِ فَمَا أُعْطِيَ، فَكُنْ وَاحِداً

(١) فَوْرَةُ السَّخَطِ - بِالْفَتْحِ - : شِدَّتُهُ وَهَيَجَانُهُ.

(٢) جار - من باب قال - : ظَلَمَ.

(٣) «الفنون» (١/٣٠٣).

(٤) تَعْتَلِجُ: تَتَصَارَعُ وَتَتَقَابَلُ.

(٥) تَخْتَلِجُ: تَضْطَرِبُ.

(٦) طَائِل: قُدْرَة.

(٧) رام - من باب قَالَ - : طَلَبَ.

(٨) مُلِّي: مُتِّعَ، يُقَالُ: مَلاَّكَ اللهُ حَبِيبَكَ تَمْنِيَةً: أي مَتَّعَكَ بِهِ، وَأَعَاشَكَ مَعَهُ طَوِيلاً.

مِنْهُمْ، أَوْ كُنْ جَانِبًا عَنْهُمْ، وَقَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ: ارْفُقْ - يَا هَذَا - ؛ فَالاسْتِقْصَاءُ[1] فُرْقَةٌ[2].

تَعَلَّمُوا مِنَ الأَنْبِيَاءِ

شَذَرَاتٌ في قَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) ﴾ [طه: ٨٥].

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) ﴾

[طه: ٩٢ - ٩٣].

﴿ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ [طه: ٩٤].

فَمُوسَىٰ عَتَبَ، وهَارُونُ اعْتَذَرَ لا بِالْقَدَرِ، ما جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ مُوسَىٰ عُذْرٌ لأَخِيهِ بِقَدَرِ بَارِيهِ، ولا جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ هَارُونَ اعْتِذَارٌ بِالْقَدَرِ، والسَّامِرِيُّ لَمَّا قَالَ لَه: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) ﴾ [طه: ٩٥]، قَالَ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) ﴾ [طه: ٩٦]، فَتَعَلَّمُوا مِنَ الأَنبِيَاءِ، ولا تُحَدِّثُوا مَا لَمْ يُسْمَعْ مِنْ ذِكْرِ القَضَاءِ والقَدَرِ[3].

---

(١) الاسْتِقْصاء في الشَّيْء: بلوغ الغايةِ فيه. (٢) «الفنون» (١/ ٣٠٦).

(٣) «الفنون» (١/ ٣١٣).

المُخَاصَمَةُ مُوَازَنَةٌ

المُخَاصَمَةُ مُوَازَنَةٌ؛ فَمَتَىٰ خَاصَمَ الإِنْسَانُ قَبْلَ مُوَازَنَةِ الحَالِ بِالحَالِ غُلِبَ وَخَسِرَ؛ فَمِنْ أَشْكَالِ الرِّجَالِ مَا يَكُونُ مُخَاصَمَةً عَنْهُ، وَمِنْ أَشْكَالِهِم مَا يَكُونُ وَبَالاً[١] عَلَيْهِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ لَهُ سَمْتٌ[٢]، وَعَلَيْهِ مَسْحَةٌ مِنْ تَوَاضُعٍ وَذُلٍّ، فَمَتَىٰ خَاصَمَهُ مَنْ عَلَيْهِ سِيما[٣] الجَلادَةِ[٤]، كَانَ النَّاسُ كُلُّهُم مَعَ صَاحِبِ السَّمْتِ؛ لما يَغْلِبُ عَلَىٰ ظَنِّهِمْ مِنْ ضَعْفِ ذَلِكَ السَّمْتِيتِ وَوَقَارِهِ، وَفَوْرَةِ ذَلِكَ الجَلْدِ وَتَسَلُّطِهِ، فَمُخَاصِمُ ذَلِكَ السَّمْتِيتِ مُعِينًا عَلَىٰ نَفْسِهِ، حَيْثُ حَمَلَ النَّاسَ بِخُصُومَتِهِ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، وَمَنْ خَاصَمَ النَّاسَ خُصِمَ[٥]، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَىٰ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَبَرَاءَتِهِ، لَمْ يَكَدْ يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، مَا لَمْ يُجْعَلْ عَلَيْهِ شَاهِدٌ مِنْ بَرَاءَتِهِ، وَكَمْ وَقَعَتِ التُّهَمُ بِالصُّوَرِ وَالأَشْكَالِ!، وَبَعُدَتْ عَنِ المُجْرِمِينَ لِصُوَرٍ وَأَشْكَالٍ![٦].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾

مَا عَلِمَ مَنْ سَافَرَ، وَرَأَىٰ عَجَائِبَ البِحَارِ وَاتِّسَاعَهَا، وَعَوَاصِفَ الرِّيَاحِ وَشِدَّةَ هُبُوبِهَا وَجَرَيَانِهَا، وَشَوَامِخَ الجِبَالِ وَعِظَمَ عُلُوِّهَا وَتَصَاعُدِهَا فِي أَجْوَائِهَا، وَعُمْقَ

---

(١) الوَبَال: سُوءُ العاقبة.

(٢) السَّمْت - بالفتح - : الوَقَارُ وَحُسْنُ الهَيْئَة.

(٣) السِّيما - بالكسر وَيُمَدُّ - : العلامة.

(٤) الجلادة: الصَّلابة، وبابُهُ ظَرُفَ وَسَهُلَ.

(٥) خَاصمه فَخَصَمَهُ - من باب ضَرَبَ - : أي غَلَبَهُ في الخُصُومَة.

(٦) «الفنون» (١/٣١٦ - ٣١٧).

الأَوْدِيَة وأَسْفَالَهَا، وَشِدَّةَ جَرْيِ السُّيُولِ إِلَيْهَا، واكْفِهْرار[١] البَرَارِيِّ[٢] وَتَضَوُّجَ[٣] قِيعَانِهَا[٤]، وَصُعُودَ السَّحَابِ وَانْتِشَارَهُ في أَعَالِي الأَجْوَاءِ وَظُلْمَتَهَا بِهِ وَانْطِبَاقَهَا، وَزَمْجَرَةَ[٥] الرُّعُودِ في خِلالِهَا، وَتَبَعُّقَ[٦] الصَّوَاعِقِ وَلَمَعَانَ البُرُوقِ عِنْدَ احْتِدَادِ حَرَكَاتِهَا وَاصْطِكَاكِهَا، وَغَرَائِبَ الْوُحُوشِ والطُّيُورِ واخْتِلافَ خَلْقِهَا وَتَرَاجُعَ نَغَمِهَا وَأَصْوَاتِهَا - بِمَثَابَةِ مَنْ لَمْ يَرَ سِوَىٰ نَفْسِهِ، وَبَيْتِهِ، وَسَمَاءِ دَارِهِ، وفُسَاحِ بَلَدِهِ[٧] ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠][٨].

الجزاءُ من جنسِ العمل

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) ﴾ [النِّسَاء: ١٦٠].

وَقَالَ - تَعَالَىٰ - : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النِّسَاء: ١٦١].

فَأَخْبَرَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أَنَّهُ يُحَرِّمُ المُبَاحَاتِ في زَمَانِ النُّبُوَّاتِ عُقُوبَةً عَلَىٰ أَكْلِ المُحَرَّمَاتِ، والآنَ فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ لِلنَّسْخِ، فَيُحَرِّمَ عَلَيْكَ، لَكِنِ احْذَرْ لا يَحْرِمُكَ، فإِنَّهُ - كَمَا يَمْنَعُ بالتَّحْرِيمِ مَنْعًا شَرْعِيًّا - يَمْنَعُ بِالْفَقْرِ تَارَةً مَعَ وُجُودِ

---

(١) اكْفِهْرَار: إظْلام. (٢) البراريّ: الصَّحَارِي، جَمْعُ بَرِّيَّة.

(٣) تَضَوُّج: اتِّساع.

(٤) القيعان - بالكسر - : جَمْعُ قَاعٍ، وهي الأَرْضُ السَّهْلَةُ المُنْخَفِضَةُ، قد انْفَرَجَتْ عنها الجِبالُ والآكَامُ.

(٥) زَمْجَرَةُ كُلِّ شَيْءٍ: صَوْتُهُ، والجَمْعُ زَمَاجِر. (٦) تَبَعُّق: اندفاع.

(٧) فُسَاح بَلَدِهِ - بالضَّمِّ - : سَعَتُهُ. (٨) «الفنون» (١/ ٣١٩ - ٣٢٠).

الْمُشْتَهَيَاتِ وَتَعَذُّرِ الأَثْمَانِ، وَتَارَةً يُوجَدُ المَالَ، ثُمَّ يُسَلِّطُ عَلَىٰ الأَبْدَانِ أَنْوَاعَ الأَمْرَاضِ المَانِعةِ مِنْ تَأَتِّي الأَثْمَانِ وإِبَاحَةِ الشَّرَائِعِ، هَذَا مِنْ بَعْضِ العُقُوبَةِ العَاجِلَةِ، احْذَرْ لا يُوقِعُ فيكَ عِلَّةً تَسْتَقْذِرُكَ الزَّوْجَاتُ والأَوْلادُ، مِنْ بَعْضِ أَجْنَادِهِ الجُذَامُ[١] القَاطِعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَائِرِ الأَنَامِ.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ - : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ومِنْ مَحْقِهِ[٢] إِخْرَاجُ المَالِ في غَيْرِ وَجْهِهِ بِجَمْعِهِ وَبِثَمَنِهِ بالرِّبَا، يُخْرِجُهُ مِنْ يَدِكَ عَلَىٰ أَحْلَىٰ مَا يَكُونُ في قَلْبِكَ إِلَىٰ العَطَّارِينَ والصَّيَادِلَةِ والأَطِبَّاءِ، لا في مُسْتَحْلًى، ولَكِنْ في حَشَائِشَ مُرَّةٍ، وَتَقْطِيعِ الْعُرُوقِ، وفَتْحِ الدُّبَلِ[٣]، وَتَخْرِيجُ مَا جَمَعْتَ مِنْهُ في أَكْرَهِ مَكْرُوهٍ، هَذَا مِنْ بَعْضِ مَحْقِهِ الرِّبَا، وإِلاَّ فَلْيُقَلِّبِ الأَسْعَارَ، حَتَّىٰ لاَ يَعُودَ إِلَيْكَ رَأْسُ المَالِ، هَذا إِذا مَحَقَ مَحَقَ؛ كَمَا أَنَّهُ إِذَا بَارَكَ بَارَكَ، تَطْلُبُ الزِّيَادَةَ بالطَّرِيقِ الَّذي نَهَاكَ عَنْهُ؛ يَحْرِمُكَ الزِّيادَةَ مِنْ حَيْثُ جَرَتِ العَادَةُ بِهِ: لا زَرْعَ يَزْكُو، ولا بِضَاعَةَ تَرْبَحُ، هَذا جَزاءُ عَبْدٍ خَالَفَ مَوْلاهُ بِشَهْوَةٍ لا حَاجَةٍ[٤].

---

(١) الجُذام - زِنَة غُراب - : عِلَّة تَحْدُثُ مِنَ انْتِشَارِ السَّوْداءِ في البَدَنِ كُلِّهِ، فَيَفْسُدُ مِزَاجُ الأَعْضَاءِ وَهَيْئَتُهَا، وَرُبَّمَا انْتَهَىٰ إِلَىٰ تَآكُلِ الأَعْضَاءِ، وسُقُوطِهَا عَنْ تَقَرُّحٍ.

(٢) مَحَقَ اللهُ - تَعَالَىٰ - الشَّيْءَ - مِنْ باب مَنَعَ - : ذَهَبَ بِبَرَكَتِهِ.

(٣) الدُّبَل: قُرُوحٌ ودماميلُ كبيرةٌ، تظهرُ في الجَوْفِ، فَتَقتلُ صاحِبَهَا غَالبًا، جَمْعُ دُبْلَةٍ - بالضَّمِّ والفتح -.

(٤) «الفنون» (١/٤٠٩ - ٤١٠).

الأمْرَاضُ مَوَاسِمُ العُقَلاءِ

الأَمْرَاضُ مَوَاسِمُ العُقَلاءِ، يَسْتَدْرِكُونَ بِهِ مَا فَاتَ مِنْ فَوَارِطِهِمْ وَزَلاَّتِهِمْ، إِنْ كَانوا مِنْ أَرْبَابِ[١] الزَّلاَّتِ، وَيَسْتَزِيدونَ مِنْ طَاعَتِهِمْ، إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَرْبَابَ زَلاَّتٍ، وَيَعْتَدُّونها - إِنْ خَلَصُوا مِنْهَا بالْمُعَافَاةِ - حياةً بَعْدَ المَمَاتِ، فَمَنْ كَانَتْ أَمْرَاضُهُ كَذَا، اغْتَنمَ في الصِّحَّةِ صِحَّةً، فَقَامَ مِنْ مَرَضِهِ سَلِيمَ النَّفْسِ والدِّينِ.

وَالكَافِرُ يُنْفِقُ عَلَىٰ الأَدْوِيَةِ، وَيُعَالِجُ[٢] الحِمْيَةَ، وَيُوفي الطَّبَّ[٣] الأَجْرَ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ عِلاجِ دِينِهِ خُبْرٌ، فَذَلِكَ يَنْصَرِعُ بالمَرَضِ انْصِرَاعَ السَّكْرَانِ، وَيُفِيقُ مِنْ مَرَضِهِ إِفَاقَةَ الإِعْدَادِ لِسُكْرٍ ثانٍ[٤].

لا تُعَاشِرْ مُتَلَوِّنًا

احْذَرْ مِمَّنْ إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ حَالٌ مِنَ الأَحْوَالِ اسْتَحَالَ[٥]، حَتَّىٰ لَمْ يَظْهَرْ فِيهِ تَقْيِيدُ الْعَقْلِ عَنِ السَّطْحِ[٦]، وَإِنْ غَضِبَ تَأَسَّدَ[٧]، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَا يَكُفُّهُ

---

(١) أرباب: أصحاب، جمعُ رَبٍّ - بالفتح -.
(٢) يُعالج: يُزَاوِلُ.
(٣) الطَّبُّ - بالفتح -: الطَّبِيب.
(٤) «الفنون» (١/ ٤١٣).
(٥) اسْتَحَالَ: انْقَلَبَ عَنْ حَالِه.
(٦) السَّطْح: البَسْط، وبَابُهُ مَنَعَ.
(٧) تَأَسَّدَ: صَارَ كَالأَسَد.

عَنِ الصَّوْلِ (١)، وَإِنِ اعْتَرَاهُ (٢) النَّهَمُ (٣)، خَرَجَ بِصُورَةِ رَخَمٍ (٤) سَاقِطًا عَلَىٰ مَا وَجَدَ مِنَ المَطَاعِمِ، لا يَلْوِي (٥) عَنْ تَنَاوُلِ المُسْتَقْذَرَاتِ فِي الطَّبْعِ، والمَكْرُوهَاتِ فِي الشَّرْعِ، وإِنْ عَرَضَ بِهَا طَالِبُ الحَقِّ وَمُقْتَضَي الشَّرْعِ، رَاغَ (٦) رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ، لا يَمْزُجُ رَوَغَانَهُ ثَبَاتًا، ولا إِصْغَاءَ إِلَىٰ إِذْعَانٍ، ولا اسْتِجَابَةً لِهَذَا الشَّأْنِ، فَهَذَا لا يُدَّخَرُ عِنْدَهُ الإِحْسَانُ؛ لأَنَّهُ كَالوِعَاءِ المُخْتَرِقِ، ولا يُرْجَىٰ مِنْهُ الخَيْرُ؛ فَاحْذَرْ مُعَاشَرَةَ أَمْثَالِهِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الأَخْطَارِ، وَمَجْمُوعُ هَذَا فِي كَلِمَةٍ: لا تُعَاشِرْ مُتَلَوِّنًا(٧).

العُزْبَةُ

كَرِهَ العُلَمَاءُ تَرْكَ النِّكَاحِ فِي حَقِّ الصُّلَحَاءِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ المُبْتَدَعَةِ، وَكَرِهُوهُ فِي حَقِّ المُتَحَرِّمِينَ(٨) المُتَبَذِّلِينَ؛ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مُوَاقَعَةِ الزِّنَا، وَطَلَبًا لِتَحْصِينِهِمْ عَنْهُ، فَلا خَيْرَ فِي العُزْبَةِ - إِذًا - إِلاَّ لِرَجُلٍ لا شَهْوَةَ لَهُ؛ يَتَخَفَّفُ بِالْعُزْبَةِ؛ كَيْلا يَتَمَوَّنَ(٩) بِحُقُوقٍ لا قُدْرَةَ لَهُ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِهَا(١٠).

---

(١) الصَّوْلُ: السَّطْو والاسْتِطَالة.
(٢) اعْتَرَاهُ: أَصَابَهُ.
(٣) النَّهَم: إِفْرَاطُ الشَّهْوَةِ فِي الطَّعَامِ، وبَابُهُ فَرِحَ.
(٤) الرَّخَم - مُحَرَّكَةً - : طَائِرٌ أَبْقَعُ (أي: فيه سَوَادٌ وبَيَاضٌ)، يُشْبِهُ النَّسْرَ فِي الخِلْقَةِ، يَأْكُلُ العَذِرَةَ، وهُوَ مِنَ الخَبَائِثِ، الوَاحِدَةُ رَخَمَةٌ.
(٥) لا يَلْوِي: لا يُعْرِض.
(٦) راغ: مال وَحَادَ عنِ الشَّيْءِ.
(٧) «الفنون» (١ / ٤١٤).
(٨) المُتَحَرِّمِينَ: المُتَحَمِّينَ المُتَمَنِّعِينَ.
(٩) التَّمَوُّن: كَثْرَةُ النَّفَقَةِ عَلَىٰ العِيَالِ.
(١٠) «الفنون» (٢ / ٤٨١).

مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ

لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَرَكَاتِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ فِي حُقُوقِ اللهِ، والانْتِهَاءِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ إِلاَّ أَنَّهُ يَعْطِفُ عَلَيْكَ، فَيُسَخِّرُهَا[١] لَكَ، وَيُطَوِّعُهَا لأَمْرِكَ، حَتَّىٰ تَنْقَادَ لَكَ، وَيُسْقِطُ عَنْكَ مُونَةَ[٢] النِّزَاعِ لَهَا والمُجَاهَدَةِ، حَتَّىٰ تَصِيرَ طَوْعَ يَدِكَ وَأَمْرِكَ، تَعَافُ المُسْتَطَابَ عِنْدَهَا، إِذَا كَانَ عِنْدَ اللهِ خَبِيثًا، وَتُوثِرُ العَمَلَ للهِ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهَا بِالأَمْسِ كَرِيهًا، وَتَسْتَخِفُّهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهَا ثَقِيلاً، حَتَّىٰ تَصِيرَ رِقًّا[٣] لَكَ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَسْتَرِقُّكَ[٤][٥].

العَمَلُ لِهَذَا الدِّينِ أَعْظَمُ الجِهَادِ

أَمَّا مَا كَلَّفَكَ مِنَ الفَرْضِ، فَقَدْ آتَاكَ قُدْرَةً عَلَيْهِ وَاسْتِطَاعَةً لَهُ، وَأَمَّا مَا نَدَبَكَ[٦] إِلَيْهِ مِنَ الفَضْلِ، فَقَدْ أَعَدَّ لَكَ بِإِزَائِهِ[٧] أَلْطَافًا، فَإِذَا أَدَّيْتَ الفُرُوضَ أَمَدَّكَ بالأَلْطَافِ؛ لِيكملَ بِفِعْلِ الزِّيَادَاتِ مِنَ الفَضَائِلِ، وأَنْتَ إِذَا أَهْمَلْتَ الفُرُوضَ، وقَصَّرْتَ فِي الحُقُوقِ ـ سَوَّلَتْ[٨] لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَعْتَذِرَ بِعَدَمِ التَّوْفِيقِ والإِعَانَةِ،

---

(١) يُسَخِّرُها: يُذَلِّلُهَا.

(٢) المُونَة ـ وفيها لُغاتٌ ـ: الثِّقَل، والجمع مُوَنٌ.

(٣) الرِّقُّ ـ بالكسر ـ: المِلْكُ.

(٤) تسترِقُّكَ: تَسْتَعْبِدُكَ.

(٥) «الفنون» (٢/٤٩٦).

(٦) نَدَبَكَ: دَعَاكَ وَحَثَّكَ وَوَجَّهَكَ.

(٧) الإزاء: المُقَابلة.

(٨) سَوَّلَتْ: زَيَّنَتْ.

فَتَقُولُ: لَو وَفَّقَنِي، لو أَعَانَنِي، مَا أَغْفَلَكَ عَنِ الحُجَّةِ لَهُ!، وَمَا أَجْرَاكَ عَلَىٰ الاحْتِجَاجِ عَلَيْهِ بِمَا لا يُورِثُكَ إِلاَّ بُعْدًا مِنَ اللهِ!.

مَا اسْتَزَادَ اللهُ[١] - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - إِلاَّ مُتَقَاعِدٌ بِحُقُوقِهِ مُحْتَكِرٌ شَرَّهُ فِي حُظُوظِهِ، وإِلاَّ فَمَا أَعْدَمَ اللهُ أَحْدًا مَا يُوصِلُهُ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، خُذْ إِنْصَافَ الحَقِّ مِنْ قَوْلِهِ لِرَسُولِهِ - ﷺ - : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ [المُدَّثِّر: ٢].

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤].

ثُمَّ قَالَ لَهُ - مِنْ طَرِيقِ الحَثِّ وَاسْتِخْرَاجِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الوَسعِ[٢] - : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المَائِدَة: ٦٧].

وَعَلِمَ أَنَّ فِي الطَّبْعِ نَوْعَ انْحِبَاسٍ مِنَ النَّاسِ؛ فَقَالَ: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المَائِدَة: ٦٧].

فَلَمَّا زَالَ مَا فِي النَّفْسِ مِنَ الضَّعْفِ بِالخَوْفِ مِنَ الجِنْسِ بِضَمَانِ الْعِصْمَةِ مِنْهُمْ، حِينَئِذٍ اشْتَطَّتِ النَّفْسُ[٣]، وَثَابَتْ[٤] القُوَّةُ، وإِذَا كَانَ الحَقُّ لا يُكَلِّفُ إِلاَّ بِالإِعَانَةِ وَإِزَالَةِ الْعَوَائِقِ، صَارَ مِنْ خِدَاعِ النَّفْسِ طَلَبُهَا لِلتَّكْلِيفِ مَعَانِيَ زَائِدَةً عَلَىٰ مَا آتَىٰ؛ لأَنَّ ذَلِكَ نَوْعُ تَسْوِيفٍ بِالتَّكْلِيفِ لانْتِظَارِ مَا لا يَلْزَمُ[٥].

---

(١) اسْتَزَادَهُ: طَلَبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ.

(٢) الوُسْع - مُثَلَّثَةً - : الطَّاقة.

(٣) اشتطَّتِ النَّفْسُ فيما تَطْلُبُ: أَمْعَنَتْ وَلَمْ تَقْتَصِدْ.

(٤) ثَابَتْ: عَادَتْ وَرَجَعَتْ.

(٥) «الفنون» (٢/٥٠٥).

نعمة المعرفة

لَوْ عَرفْتَ قَبْلَ الأَعْمَالِ؛ سَهُلَتْ عَلَيْكَ، لَكنَّكَ لَمْ تُتْقِنِ المَعَارِفَ؛ فَثَقُلَتْ عَلَيْكَ التَّكَالِيفُ، وَمَا اسْتُعْمِلَ قَطُّ إِلاَّ المَعَارِفُ؛ فَيَنْبَغي لَكَ أَنْ تُتْقِنَ عِرْفَانَ المُكَلِّفِ، وَتَنْظُرُ كَيْفَ التَّكْليف عَلَىٰ أَرْكَانِكَ[١]، ثَقيلاً أَمْ خَفيفًا؟، إِذَا فَتَحْتَ عَيْنَيْكَ وَنَظَرْتَ، ثُمَّ أَمْعَنْتَ فِكْرَكَ، فَخَبَرْتَ حَالَ هَذَا الدَّائِرِ المُرَصَّعِ[٢]، وَتَصَارِيفَ هَذَا الكَوْنِ المُجَنَّسِ المُنَوَّعِ، وَتَقَلُّبَ هَذَا المُبَدَّدِ[٣] المُجَمَّعِ، وَشَهِدْتَ بِعَقْلِكَ مَا وَرَاءَهُ مِنَ المُؤَثِّرِ الْعَظِيمِ الَّذي خَلَقَ وَأَبْدَعَ[٤]، فَبَصَّرَ وَأَسْمَعَ، ثُمَّ تَنْظُرُ في حَالِ السَّفِيرِ[٥] الَّذي أَبْهَرَتِ العُقُولَ مُعْجِزَاتُهُ: إِنِ انْتَقَلَ عَنِ الخُطْبَةِ عَلَىٰ جِذْعٍ حَنَّ إِلَيْهِ[٦]، وَإِنْ تَنَاوَلَ حُصَيَّاتٍ سَبَّحْنَ فِي يَدَيْهِ، وَإِنْ أَشَارَ إِلَىٰ الْقَمَرِ انْشَقَّ، وَإِنْ تَرَكَ يَدَهُ فِي إِنَاءٍ فَارَ[٧] بِالمَاءِ وَجَاشَ[٨]، وَإِنِ اسْتَدْعَىٰ شَجَرَةً أَسْرَعَتْ، وَإِنْ كَلَّمَ ظَبْيًا أَجَابَ، وَإِنِ اسْتَدْعَىٰ بِبَعِيرٍ سَجَدَ، وَإِنْ بَرَكَ يَدَهُ عَلَىٰ صَدْرِ ضَالٍّ اهْتَدَىٰ، وَإِنْ تَفَلَ عَلَىٰ مَلْدُوغٍ بَرِئَ[٩]، وَإِنْ أَشَارَ إِلَىٰ جَوٍّ قَدْ أَجْدَبَ وَالْتَهَبَ، عَادَ بِالغَمَامِ مُحْتَجِبًا، وَبِالْغَيْثِ هَاطِلاً سَاكِبًا، وَمَنْ طُوِّعَتْ لَهُ الأَشْيَاءُ كَذَا، وَجَبَ طَاعَتُهُ عَلَىٰ سَائِرِ الوَرَىٰ[١٠]، فَإِذَا خَبَرْتَ وَنَظَرْتَ إِلَىٰ المَعْنَىٰ الَّذي إِلَيْهِ يُشِيرُ، وَعَرَفْتَ مِقْدَارَ

---

(١) أركانك: جَوَارِحُكَ.

(٢) المُرَصَّع: المُحَلَّىٰ المُزَيَّن.

(٣) المُبدَّد: المُفرَّق.

(٤) أبْدع: أبْدَأ وَاخْتَرَعَ لا عَلَىٰ مِثَالٍ.

(٥) السَّفير: الرَّسُولُ – عَلَيْه الصَّلاة والسَّلام – ، والجمع سُفَرَاءُ.

(٦) حَنَّ الجِذْعُ إِلَيْه: أيْ نَزَعَ وَاشْتَاقَ.

(٧) فَارَ: نَبَعَ.

(٨) جَاشَ: فَاضَ وَاضْطَرَبَ.

(٩) بَرِئَ: صَحَّ وَنَقِهَ.

(١٠) الوَرَىٰ: الخَلْق والنَّاس.

الدَّاعِي إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - والسَّفِيرِ - تَذَلَّلَتْ لَكَ نَفْسُكَ بِطَاعَتِهِ فِيما إِلَيْهِ دَعَاكَ، وَلَمْ تَعْبُدْ - بَعْدَ الهُدَىٰ وَالإِيمَانِ - هَوَاكَ، فَهُنَاكَ - وَاللهِ - هَانَ عَلَيْكَ مَا بَذَلْتَ، وَعَظُمَ عِنْدَكَ قَدْرُ مَنْ أَطَعْتَ، وإِلَيْهِ بِطَاعَتِكَ تَقَرَّبْتَ[١].

اغْتَنِمْ عِبَادَةَ اللهِ فِي هَذِهِ اللَّمْحَةِ

مَنْ عَلِمَ أَنَّ الآخِرَةَ إِمَّا بِلَىٰ الأَبْدَانِ وَخَرَابُ الْبِنْيَةِ، أَوْ دَارُ مُجَازَاةٍ - اغْتَنَمَ عِبَادَةَ اللهِ فِي هَذِهِ اللَّمْحَةِ؛ لأَنَّ بَيْنَ قَوْلِهِ الْيَوْمَ: «الحَمْدُ للهِ»، وَبَيْنَ قَوْلِهِ غَدًا فِي دَارِ السَّلامِ: «الحَمْدُ للهِ» - مَا لا يُسْتَدْرَكُ مُفَاوَتَةً بِمَعْنًى؛ لأَنَّ حَمْدَ المُنْعِمِ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ عِبَادَةٌ وَشُكْرٌ، وَغَدًا شُكْرٌ بِلا عِبَادَةٍ.

واللهِ، لَقَدْ تَحَقَّقَ الْغَارِقُونَ أَنَّ جَمَالَ الأَرْكَانِ بِطَاعَةِ الإِيمَانِ أَكْثَرُ مِنْ جَمَالِهَا بِاسْتِيفَاءِ اللَّذَّاتِ فِي دَارِ المُجَازَاةِ، واجْتِمَاعَهَا عَنِ الحَرَامِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مُرَاقَبَةً لِطَاعَةِ اللهِ، وَحَذَرًا مِنْ سَخَطِ اللهِ - أَكْثَرُ وأَكْبَرُ مِنْ تَنَاوُلِهَا هُنَاكَ وَانبِسَاطِهَا فِي جِوَارِ اللهِ، وَلَوْلا بَقَايَا مِنَ الخِدَمِ فِي دَارِ النِّعَمِ؛ لَمَا وَازَنَ ذَلِكَ الْبَقَاءُ السَّرْمَدُ[٢] هَذَا الْبَقَاءَ الَّذِي عَنْ قَلِيلٍ يَنْفَدُ، لَكِنَّ المَعَارِفَ هُنَاكَ تَقْوَىٰ، وَعَوَارِضَ الشُّكُوكِ تَنْحَسِمُ[٣] بِالْيَقِينِ.

---

(١) «الفنون» (٢/٥٠٦).

(٢) السَّرْمَد - بالفتح -: الدَّائم.

(٣) تَنْحَسِم: تنقطع.

وَقَدْ قَالَ الرِّجَالُ قَبْلِي: كَيَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ: وَاللهِ، إِنَّهُم اليَوْمَ في قَرَاطِقِ(١) الخِدْمَةِ أَحْسَنُ مِنْهُمْ غَداً في غَلائِلِ(٢) النِّعْمَةِ.

وَأَنَا أَقُولُ: الخِدَمُ أَوْجَبَتْ لَهُمْ مِدْحَةَ الحَقِّ، والنِّعَمُ أَوْجَبَتْ مِنَّةَ(٣) الحَقِّ، وَبَيْنَ المِدْحَةِ والمِنَّةِ بَوْنٌ(٤).

قَالَ فيهم - عَلَىٰ سبيلِ المِدْحَةِ -: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ [النور: ٣٧]، ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨].

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ [الإنسان: ٧]، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

هَذَا أَنْبَلُ وأَجَلُّ في مَسَامِعِ الْعُقَلاءِ المُمَيِّزِينَ مِنْ أَوْصَافِهِم باسْتِيفَاءِ اللَّذَّات: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ(٥) عِينٌ(٦) ﴿٢٢﴾﴾ [الواقعة: ٢٠ - ٢٢]، ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الإنسان: ١٣]، ﴿يَطُوفُ

---

(١) القراطق: جَمْعُ قُرْطُقٍ - بِضَمٍّ وَفَتْحِ الطَّاءِ، وَقَدْ تُضَمُّ - ، وهُوَ مَلْبُوسٌ مِنْ مَلابِسِ العَجَمِ، يُشْبِهُ القَبَاءَ.

(٢) الغلائل: جمعُ غِلالةٍ - بالكسر -، وهي شعارٌ يُلْبَسُ تَحْتَ الثَّوْب.

(٣) المِنَّة - بالكسر -: الاعتدادُ بالإحسانِ والنِّعَمِ، واللهُ - سُبْحَانَهُ - يُنْعِمُ غَيْرَ فاخرٍ بالإنْعامِ ولا مُسْتَثِيبٍ، وجَمْعُ المِنَّةِ مِنَنٌ.

(٤) بَوْن - بالفتح - : أي فَرْقٌ شاسعٌ وَتَفَاوُت في الفَضْلِ والمَزِيَّة.

(٥) حُور: جمعُ حَوْرَاءَ، وهي المرأة بَيِّنَةُ الحَوَرِ، والحَوَرُ: شِدَّةُ بياضِ العَيْنِ في شِدَّةِ سَوَادِهَا، ولا تُسمَّىٰ المَرْأَةُ حَوْرَاءَ حَتَّىٰ يَكُونَ - مَعَ حَوَرِ عَيْنِها - بياضُ الجِلْدِ ورِقَّتُهُ، فَيَحارُ فيها الطَّرْفُ.

(٦) عِين - بالكسر- : جَمْعُ عَيْنَاءَ، وَهِيَ الحَسَنَةُ العَيْنَيْنِ الوَاسِعَتُهُمَا.

عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[١] ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]؛ لأَنَّ هَذِهِ أَوْصَافُ نِعْمَةٍ عَلَيْهِم، وَتِلْكَ أَوْصَافُ خِدْمَتِهِمْ لَهُ، وأَحْسَنُ حَالَتَي الْعَبِيدِ حَالُ الخِدْمَةِ وَزِيُّ[٢] التَّبَتُّلِ[٣][٤].

لا تَنْصَحْ أَحَداً عَلَى شَرْطِ القَبُولِ

البَارِي – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – أَخْبَرَ عَنِ الكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ بَلَغُوا مِنَ العِنَادِ الغَايَةَ الَّتي لا رَجَاءَ لِرَاجٍ مَعَهَا اسْتِجَابَةً، فَقَالَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحِجْرُ: ١٤، ١٥].

وَمَعَ ذَلِكَ الكَشْفِ لِمَا أَدْرَكَهُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ بِعِلْمِهِ الَّذي لا يَتَغَيَّرُ، ولا يَخْتَلِجُهُ[٥] شَكٌّ، ولا يَتَطَرَّقُ إِلَيْه رَيْبٌ – أَمَرَهُ بِالبَلاغِ، وَحَثَّهُ عَلَىٰ الإِنْذَارِ لَهُمْ، واللُّطْفِ بِهِمْ، والْعَفْوِ عَنْهُمْ، وكَذَلِكَ أَمَرَ مُوسَىٰ بِاللِّينِ في القَوْلِ لِفِرْعَوْنَ مَعَ العِلْمِ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِ[٦].

---

(١) معين: المُرَادُ به هاهنا الخَمْرُ الجارِيةُ مِنَ العُيُونِ.
(٢) الزِّيُّ – بالكسر – : الهَيْئَة.
(٣) التَّبَتُّل: الانقطاعُ عَنِ الدُّنْيَا إِلَىٰ اللهِ – تَعَالَىٰ – في العِبَادَةِ.
(٤) «الفنون» (٢/ ٥١٧ – ٥١٨).
(٥) يَخْتَلِجُهُ: يَنْتَزِعُهُ.
(٦) «الفنون» (٢/ ٥٨٠).

الشَّيْبُ مَـرَضُ المَوْتِ

الشَّيْبُ مَرَضُ المَوْتِ، لَوْلا أَنَّهُ مَأْلُوفٌ، وإِلاَّ فَسَلْ عَنْهُ الطِّبَّ، فَقُلْ: ما هَذَا العَارِضُ؟، هَلْ هُوَ زَائِلٌ أم لا؟. فإذا أَجْمَعَ الْكُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ذُبولٌ يَتَزَايَدُ، وَتَحَلُّلٌ يَتَرَادَفُ وَيَتَتَالَىٰ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَرَضُ المَوْتِ.

انْظُرْ مَا تَفْعَلُهُ في مَرَضِ المَوْتِ، يَقُولُ لَكَ الطِّبُّ: مَا لِهَذَا بُرْءٌ ولا شِفَاءٌ، وَلا يُرْجَىٰ لَهُ عِلاجٌ، ولا يُوجَدُ لَهُ دَوَاءٌ، فَافْعَلْهُ إِذَا ابْيَضَّتْ لِحْيَتُكَ وَرَأْسُكَ، فَمَا بَعْدَ بَيَاضِ اللِّحْيَةِ والرَّأْسِ إِلاَّ الانْحِلالُ والانْعِكَاسُ[1]، تَأَهَّبْ لِلنُّقْلَةِ[2]؛ فَقَدِ اسْتَقَرَّتِ الْعِلَّةُ، أَلَيْسَ قَدْ جَرَتْ عَادَتُكُمْ بِتَوْزِيعِ الأَمْوَالِ، وَتَحْسِينِ الأَعْمَالِ، وَتَأْكِيدِ الْوَصِيَّةِ، وتَجْدِيدِ التَّوْبَةِ، وَمُجَالَسَةِ الأَصْدِقَاءِ وَالْمُعَامِلِينَ مَعَ تَجْوِيزِ خَطَأ الطِّبِّ في القَوْلِ وذَهَابِهِمْ عَنِ الصَّوَابِ؛ لأَنَّ العِلَلَ مُخْتَلِفَةٌ؟!، فَهَلْ يَخْتَلِفُ اثْنَانِ أَنَّ المَشِيبَ طَلائِعُ المَوْتِ[3]، وَعُنْوَانُ الفَوْتِ[4]، وَعِلَّةٌ لا تَتَزَايَلُ، وَمَرَضٌ لا يُفَارِقُ؟[5].

---

(١) الانعكاس: رجوعُ آخرِ الشَّيْءِ إِلَىٰ أَوَّلِه، والإِنْسَانُ أَوَّلُهُ ضَعْفٌ، وآخِرُهُ ضَعْفٌ.

(٢) النُّقْلَة - بالضَّمّ -: الانتقال، والجمعُ نُقَلٌ.

(٣) طَلائع الموت: رسله، والطَّلائع في الأصل: القوم يُبْعَثُونَ أمامَ الجَيْشِ؛ ليطَّلِعُوا خَبَرَ العَدُوِّ كالجوَاسيس، واحدُهُم طَلِيعةٌ.

(٤) الفَوْت: الذَّهَاب، وبابُهُ قَالَ، وَفَوَاتًا - أيْضًا -.

(٥) «الفنون» (٢/ ٥٣٩).

قَصْرُ الأَمَلِ

مَا تَصْفُو الأَعْمَالُ والأَحْوَالُ إلاَّ بِتَقْصِيرِ الآمَال؛ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ عَدَّ[١] سَاعَتَهُ الَّتي هُوَ فيها كَمَرَضِ المَوْتِ - حَسُنَتْ أَعْمَالُهُ، فَصَارَ عُمُرُهُ كُلُّهُ صَافِيًا[٢].

الاعْتِمَادُ عَلَى النَّاسِ إفْلاسٌ

بَيْنَمَا أَنْتَ مُعْجَبٌ بِالْوَاحِدِ مِنْ أَهْلِ الدَّهْرِ، حَتَّىٰ يَمْلَوْلِحَ عَذْبُهُ، وَيَكْتَهِلَ عُشْبُهُ[٣]، ويَضِيقَ رَحْبُهُ[٤]، فالاغْتِرارُ بِهِمْ غَبَاءٌ، وَوُدُّهُمْ - عِنْدَ التَّحْقِيقِ - هَبَاءٌ، وَالاعْتِمَادُ عَلَيْهِمْ إِفْلاسٌ[٥].

---

(١) عَدَّ: ظَنَّ، وبابُهُ رَدَّ.

(٢) «الفنون» (٢/ ٥٤٦).

(٣) اكتهَلَ العُشْبُ: طال وانتَهَىٰ مُنْتَهاهُ.

(٤) الرَّحبُ - بالفتح -: الواسع.

(٥) «الفنون» (٢/ ٥٦٠).

﴿ كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾

قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ - في قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ - : ﴿ كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤]، أَيْ : مَقْطُوعَةٌ مُمَالَةٌ إِلَىٰ الحَائِطِ لاَ تَقُومُ بِنَفْسِهَا، وَلاَ هِيَ ثَابِتَةٌ، إِنَّمَا كَانُوا يَسْتَنِدُونَ إِلَىٰ مَنْ يَنْصُرُهُمْ، وَإِلَىٰ مَنْ يَتَظَاهَرُونَ[١] بِهِ ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤]، لِسُوءِ اعْتِقَادِهِمْ ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ [المنافقون: ٤]، لِلتَّمَكُّنِ بِهِ من الشَّرِّ بِالْمُخَاطَبَةِ وَالْمُدَاخَلَةِ[٢].

الرِّضَاءُ بِقَضَاءِ الله

الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ - تَعَالَىٰ - وَاجِبٌ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِهِ - تَعَالَىٰ -: كَالأَمْرَاضِ وَنَحْوِهَا، قَالَ : فَأَمَّا مَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ: كَالْكُفْرِ وَالضَّلالِ، فَلا يَجُوزُ إِجْمَاعًا؛ إِذِ الرِّضَا بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي كُفْرٌ وَعِصْيَانٌ[٣].

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

قيلَ لابْنِ عَقِيلٍ فِي فُنُونِهِ: أَسْمَعُ وَصِيَّةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤]، وَأَسْمَعُ

(١) يتظاهرون: يتعاونون.

(٢) «الآداب الشرعية» لابْنِ مُفْلِحٍ (١ / ٣٥ - ٣٦).

(٣) المرجع السابق (١ / ٣١).

النَّاسَ يَعُدُّونَ مَنْ يُظْهِرُ خِلافَ مَا يُبْطِنُ مُنَافِقًا، فَكَيْفَ لِي بِطَاعَةِ اللهِ – تَعَالَىٰ – وَالتَّخَلُّصِ مِنْ النِّفَاقِ؟.

فَقَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: النِّفَاقُ هُوَ: إِظْهَارُ الجَمِيلِ، وَإِبْطَانُ الْقَبِيحِ، وَإِضْمَارُ الشَّرِّ مَعَ إِظْهَارِ الخَيْرِ لإِيقَاعِ الشَّرِّ، وَالَّذِي تَضَمَّنَتْهُ الآيَةُ إِظْهَارُ الحَسَنِ فِي مُقَابَلَةِ الْقَبِيحِ لاسْتِدْعَاءِ الحَسَنِ؛ فَخَرَجَ مِنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ أَنَّ النِّفَاقَ إِبْطَانُ الشَّرِّ وَإِظْهَارُ الخَيْرِ لإِيقَاعِ الشَّرِّ المُضْمَرِ[1]، وَمَنْ أَظْهَرَ الجَمِيلَ وَالحَسَنَ فِي مُقَابَلَةِ الْقَبِيحِ لِيَزُولَ الشَّرُّ فَلَيْسَ بِمُنَافِقٍ لَكِنَّهُ يَسْتَصْلِحُ، أَلاَ تَسْمَعُ إِلَىٰ قَوْلِهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، فَهَذَا اكْتِسَابُ اسْتِمَالَةٍ، وَدَفْعُ عَدَاوَةٍ، وَإِطْفَاءٌ لِنِيرَانِ الحَقَائِدِ، وَاسْتِنْمَاءُ الْوُدِّ وَإِصْلاحُ الْعَقَائِدِ، فَهَذَا طِبُّ المَوَدَّاتِ وَاكْتِسَابُ الرِّجَالِ[2].

الحَسَدُ وَبَالٌ عَلَىٰ صَاحِبِهِ

افْتَقَدْتُ الأَخْلاقَ، فَإِذَا أَشَدُّهَا وَبَالاً عَلَىٰ صَاحِبِهَا الحَسَدُ؛ فَإِنَّهُ التَّأَذِّي بِمَا يَتَجَدَّدُ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ، فَكُلَّمَا تَلَذَّذَ المَحْسُودُ بِنِعَمِ اللهِ – تَعَالَىٰ – تَأَذَّىٰ الحَاسِدُ وَتَنَغَّصَ، فَهُوَ ضِدٌّ لِفِعْلِ اللهِ – تَعَالَىٰ –، سَاخِطٌ بِمَا قَسَمَهُ، مُتَمَنٍّ زَوَالَ مَا مَنَحَهُ خَلْقَهُ، فَمَتَىٰ يَطِيبُ بِهَذَا عَيْشٌ وَنِعَمٌ تَنْثَالُ[3] انْثِيَالاً؟ وَهَذَا المُدْبِرُ[4] لا يَزَالُ

---

(١) المُضْمَر: المُخْفَىٰ.

(٢) «الآداب الشَّرعيَّة» (١/٩٥ – ٩٦).

(٣) تَنْثَالُ: تتابع.

(٤) المُدبِرُ: المُعْرِض.

بِأَفْعَالِ اللهِ مُتَسَخِّطًا، وَمَا زَالَ أَرْحَمَ النَّاسِ لِلنَّظَرِ فِي عَوَاقِبِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ النَّزْعُ وَحَشْرَجَةُ[١] الرُّوحِ فَكَيْفَ بِمُقَدِّمَاتِ الْمَوْتِ مِنَ الْبِلَىٰ وَالضَّنَىٰ[٢] ؟!، فَمَنْ شَهِدَ هَذَا فِيهِمْ كيف يَحْسُدُهُمْ؟!، واللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَعْلَمُ[٣].

الْفَرَحُ بِطَاعَةِ الرَّبِّ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإعْجَابِ

الإِعْجَابُ لَيْسَ بِالْفَرَحِ وَالْفَرَحُ لاَ يَقْدَحُ[٤] فِي الطَّاعَاتِ؛ لأَنَّهَا مَسَرَّةُ النَّفْسِ بِطَاعَةِ الرَّبِّ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِمَّا سَرَّ الْعُقَلاءَ وَأَبْهَجَ الْفُضَلاءَ . . . وَإِنَّمَا الإِعْجَابُ اسْتِكْثَارُ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَرُؤْيَةُ النَّفْسِ بِعَيْنِ الافْتِخَارِ[٥].

لُطْفُ اللهِ بِخَلْقِهِ

أُنْظُرْ إِلَىٰ لُطْفِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِخَلْقِهِ كَيْفَ وَضَعَ فِيهِمْ لِمَصَالِحِهِمْ مَدَارِكَ تَزِيدُ عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَدَوَاعِيَ تَحُثُّهُمْ عَلَىٰ فِعْلِ مَا فِيهِ الصَّلاحُ وَالْكَفُّ عَنِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مِنْ ذَلِكَ وَضْعُهُ لِلشَّهْوَةِ وَهَيَجَانِ الطَّبْعِ لِطَلَبِ الْجِمَاعِ وَذَلِكَ طَرِيقُ

---

(١) الحَشْرَجَة: الغَرْغَرَةُ عِنْدَ المَوتِ وَتَرَدُّدُ النَّفَسِ.

(٢) الضَّنَىٰ: المَرَض، وبَابُهُ صَدِيَ.

(٣) «الآدَاب الشَّرْعِيَّة» (١/١٥٩).

(٤) يَقْدَح: يَطْعَن، وبَابُهُ قَطَعَ.

(٥) «الآداب الشرعيَّة» (١/١٨٩ ـ ١٩٠).

النُّشُوءِ وَحِفْظُ النَّسْلِ، وَالآلامُ تَحْصُلُ مِنْ الرِّقَّةِ عَلَىٰ الحَيَوَانِ؛ لِيَحْصُلَ الامْتِنَاعُ مِنْ الإِقْدَامِ عَلَىٰ الإِيلامِ، وَيَحْصُلُ مَنْعُ المُؤْلِمِ وَكَفُّ المُتَعَدِّي وَجَعْلُ المَسَرَّةِ الْوَاقِعَةِ بِالمِدْحَةِ دَاعِيَةً إِلَىٰ فِعْلِ الخَيْرِ؛ إِذْ لاَ يُمْدَحُ إِلاَّ عَلَىٰ الخَيْرِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ جَمِيعُ مَا يَدْفَعُ الضَّرَرَ وَيَجْلُبُ الخَيْرَ، لَمْ يُخَلِّه مِنْ دَوَاعٍ بَاعِثَةٍ عَلَىٰ فِعْلِهِ، وَلَوَاذِعَ[١] زَاجِرَةٍ عَنْ فِعْلِ الْقَبِيحِ. فَسُبْحَانَ مَنْ يَفِيضُ جُودُهُ بِالخَيْرِ[٢] لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ حَسَنٌ نَافِعٌ، وَيَصْرِفُ السُّوءَ لِعِلْمِهِ بِقُبْحِهِ وَغَنَائِهِ، وَيُصَرِّفُ خَلْقَهُ بِأَنْوَاعِ الصَّوَارِفِ الْعَاجِلَةِ، وَالصَّوَارِفِ بِالْوَعِيدِ وَبِالْعِقَابِ الآجِلِ[٣]!.

العَمَلُ للنَّاسِ

أنت لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ إِكْرَامَ الخَلْقِ لَكَ رِيَاءٌ سَقَطْتَ مِنْ عَيْنِكَ، أَفَأَقْنَعُ أَنَا مِنْكَ أَنْ تَجْعَلَنِي فِي الْعَادَةِ جُزْءًا مِنْ كُلٍّ، أو بَعْضًا مِنْ جَمَاعَةٍ ؟! وَقَالَ : مَا يَحْلُو لَكَ الْعَمَلُ حَتَّىٰ تَحْلُو لَكَ تَسْمِيَتُهُمْ بِعَابِدٍ وَزَاهِدٍ، فَارْثِ لِنَفْسِكَ[٤] مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ رِيَاءٌ وَسُمْعَةٌ، وَلَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلاَّ مَا حَظِيتَ بِهِ مِنْ الصِّيتِ[٥]، تَدْرِي كَمْ فِي

---

(١) اللَّوَاذِعُ: المُوجِعَات.

(٢) أفاض جُودُهُ بالخير: دَفَعَ بِهِ وَرَمَىٰ.

(٣) «الآداب الشرعيَّة» (١/ ١٩٠ – ١٩١).

(٤) فَارْثِ لِنَفْسِكَ: ارْحَمْهَا وَرِقَّ لَهَا، وبَاب رَثَىٰ رَمَىٰ، وَمَرْثِيَةً – أَيْضًا – .

(٥) الصِّيت – بالكَسْرِ – : الذِّكْر الحَسَن الجَمِيل.

الجَـرِيدَةِ أَقْوَامٌ لاَ يُؤْبَهُ لَهُمْ(١) إِلاَّ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ الْقُبُورِ، وَكَمْ يُفْتَضَحُ غَداً مِنْ أَرْبَابِ الأَسْمَاءِ مِنَ الخَلْقِ بِعَالِمٍ وَصَالِحٍ وَزَاهِدٍ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ طُفَيْلِيٍّ(٢) تَصَدَّرَ بِالْوَقَاحَةِ(٣)!(٤).

للإيمان روائح ولوائح

لِلإِيمَانِ رَوَائِحُ وَلَوَائِحُ لاَ تَخْفَىٰ عَلَىٰ اطِّلاعِ مُكَلَّفٍ بِالتَّلْمِيحِ لِلْمُتَفَرِّسِ، وَقَلَّ أَنْ يُضْمِرَ مُضْمِرٌ شَيْئاً إِلاَّ وَظَهَرَ مَعَ الزَّمَانِ عَلَىٰ فَلَتَاتِ(٥) لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ(٦).

اكتشاف أصحاب الملل والنحل(٧)

وَأَنَّ مَنْ أَرَادَ التَّكَشُّفَ عَنْ رَجُلٍ خَطَبَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لاَ يَزَالُ يَذْكُرُ المَذَاهِبَ،

---

(١) لا يُؤْبَهُ لَهُمْ: لا يُفْطَنُ.

(٢) الطُّفَيْلِيُّ: هُوَ الَّذِي يَدْخُلُ عَلَىٰ القَوْمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُوهُ، وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَىٰ طَفَيْلٍ، رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللهِ بْنِ غَطَفَانَ، كَانَ يَأْتِي الوَلائِمَ دُونَ أَنْ يُدْعَىٰ إِلَيْهَا، وَكَانَ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنَّ الكُوفَةَ كُلَّها بِرْكَةٌ مُصَهْرَجَةٌ (أي: مَطْلِيَّةٌ بالصَّارُوجِ، وهُوَ النُّورَةُ بِأَخْلاطِهَا؛ فَلا يَخْفَىٰ عَلَيَّ مِنْهَا شَيْءٌ).

(٣) الوَقَاحَةُ ـ بالفتح ـ: قِلَّةُ الحَيَاءِ.

(٤) «الآداب الشَّرعية» (١/١٩٢).

(٥) الفَلَتَاتُ: السَّقَطَاتُ، والزَّلاَّتُ، جمعُ فَلْتَةٍ ـ بالفتح ـ.

(٦) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (١/١٩٤).

(٧) النِّحَلُ: جَمْعُ نِحْلَةٍ ـ بالكسر ـ، وهي الدِّينُ.

وَيُعَرِّضُ[١] بهَا، وَيَذْكُرُ الأفْعَالَ الزَّرِيَّةَ[٢] فِي الشَّرْعِ، الَّتِي يَميلُ إلَيْهَا الطَّبْعُ، وَيَنْظُرُ هَشَاشَتَهُ إلَيْهَا وَتَعَبُّسَهُ عِنْدَ ذِكْرِهَا وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ، فَإنَّهُ لاَ يَزَالُ الْبَحْثُ بِصَاحِبِهِ وَالتَّوَقُّفُ، حَتَّىٰ يُوقِفَهُ عَلَىٰ المَطْلُوبِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ الدَّلاَئِلِ، فَافْهَمْ ذَلِكَ بِطَرِيقٍ مُرِيحٍ مِنْ كُلِّ إقْدَامٍ عَلَىٰ مَا لاَ تَسْلَمُ مِنْ عَاقِبَتِهِ، وَيَعْصِمُ مِنْ كُلِّ وَرْطَةٍ وَسَقْطَةٍ يَبْعُدُ تَلاَفِيهَا، وَذَلِكَ دَأْبُ[٣] الْعُقَلاءِ، فَأيْنَ رَائِحَةُ الإيمَانِ مِنْكَ وَأنْتَ لاَ يَتَغَيَّرُ وَجْهُكَ فَضْلاً عَنْ أنْ تَتَكَلَّمَ؟!.

وَمُخَالَفَةُ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ وَاقِعَةٌ مِنْ كُلِّ مُعَاشِرٍ وَمُجَاوِرٍ فَلا تَزَالُ مَعَاصِي اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَالْكُفْرُ يَزِيدُ، وَحَرِيمُ الشَّرْعِ[٤] يُنْتَهَكُ[٥]، فَلاَ إنْكَارَ وَلاَ مُنْكِرَ، وَلاَ مُفَارَقَةَ لِمُرْتَكِبِ ذَلِكَ، وَلاَ هِجْرَانَ لَهُ، وَهَذَا غَايَةُ بَرْدِ الْقَلْبِ وَسُكُونِ النَّفْسِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي قَلْبٍ قَطُّ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ إيمَانٍ؛ لأنَّ الْغِيرَةَ أقَلُّ شَوَاهِدِ المَحَبَّةِ وَالاعْتِقَادِ.

قَالَ: حَتَّىٰ لَوْ تَحَجَّفَ[٦] الإنْسَانُ بِكُلِّ مَعْنًىٰ وَأمْسَكَ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ لَمَا تَرَكُوهُ يُفْصِحُ؛ لأنَّهُمْ كَثْرَةٌ وَهُوَ وَاحِدٌ وَالْكَلامُ شُجُونٌ[٧]، وَالمَذَاهِبُ فُنُونٌ[٨]، وَكُلٌّ

---

(١) التَّعْرِيض: خلافُ التَّصْرِيح من القول.

(٢) الزَّرِيَّة: المُنْكَرة المُعابَة.

(٣) الدَّأْب ـ بالفَتْحِ ويُحَرَّكُ ـ : العادة والشَّأْن.

(٤) حريم الشَّرْع: ما حرَّمَهُ.

(٥) يُنْتَهَكُ: يُتَنَاوَلُ بما لا يَحِلُّ.

(٦) تحَجَّفَ: تَسَتَّرَ، مُشْتَقٌّ مِنَ الحَجَفَة ـ بالتَّحْرِيك ـ ، وهي التُّرْسُ مِنَ الجِلْدِ فَهي كَتَتَرَّسَ.

(٧) شُجُون: شُعَب وطُرُق مُتداخِلَة، وَقَوْلُهُمْ: الحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ يُضْرَبُ هَذَا مَثَلاً للحديث يُسْتَذْكَرُ به غَيْرُهُ، وَوَاحِدُ الشُّجُون شَجَنٌ، وَهُوَ الشُّعْبَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُجْمَعُ ـ أيْضًا ـ عَلَىٰ أشْجَانٍ.

(٨) فنون: أنْوَاع، جَمْعُ فَنٍّ ـ بالفتح ـ .

مِنْهُمْ يَنْطِقُ بِمَذْهَبٍ وَيُعَظِّمُ شَخْصًا، وَآخَرُ يَذُمُّ ذَلِكَ الشَّخْصَ وَالمَذْهَبَ وَيَمْدَحُ غَيْرَهُ، وَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَهِشَّ لِمَدْحِ مَنْ يَهْوَىٰ، وَيَعْبَسَ لِذَمِّهِ، وَيَنْفِرَ مِنْ ذَمِّ مَذْهَبٍ يَعْتَقِدُهُ، فَيَكْشِفَ ذَلِكَ، فَالْعَاقِلُ مَنْ اجْتَهَدَ فِي تَفْوِيضِ[١] أَمْرِهِ إِلَىٰ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي سَتْرِ مَا يَجِبُ سَتْرُهُ، وَكَشْفِ مَا يَجِبُ كَشْفُهُ، وَلاَ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ يَتْعَبُ وَلاَ يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ الْغَرَضَ.

قَالَ: لأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَهِشَّ بِخِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ وَلاَ عَلِيٍّ – رضي الله عنهما – إِنْ كَانَتْ الْمُنَاظَرَةُ فِيهِمَا، وَلاَ إِلَىٰ الْقَدَرِ وَلاَ إِلَىٰ نَفْيِهِ وَلاَ حُدُوثِ الْعَالَمِ وَلاَ قِدَمِهِ، وَلاَ النَّسْخِ وَلاَ المَنْعِ مِنَ النَّسْخِ، وَالسُّكُونُ إِلَىٰ هَذَا، وَبَرْدُ قَلْبِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ كَافِرٌ لاَ يَعْتَقِدُ؛ إِذْ لَوْ كَانَ لِهَذَا اعْتِقَادٌ يُحَرِّكُهُ لَهَشَّ إِلَىٰ نَاصِرِ مُعْتَقَدِهِ، وَلأَنْكَرَ عَلَىٰ مُفْسِدِ مُعْتَقَدِهِ. فَالوَيْلُ لِلْكَاتِمِ مِنْ الْمُتَكَشِّفِينَ.

وَإِرْضَاءُ الخَلْقِ بِالْمُعْتَقَدَاتِ وَبَالٌ فِي الآخِرَةِ، وَمُبَاغَتَتُهُمْ[٢] فِيهَا وَمُكَاشَفَتُهُمْ بِهَا وَبَالٌ فِي الدُّنْيَا وَتَغْرِيرٌ بِالنَّفْسِ، وَلاَ يَنْجُو مِنْهُمْ الْمُشَارِكُ لَهُمْ فِي الحِيَلِ. وَالأَحْرَىٰ بِالإِنْسَانِ أَنْ يَتَمَاسَكَ عَمَّا فِيهِ، وَيَتْرُكَ فُضُولَ الْكَلاَمِ، وَإِذَا تَوَسَّطَ اعْتَمَدَ عَلَىٰ اللهِ فِي إِصْلاَحِ دُنْيَاهُ، وَإِذَا قَصَدَ إِظْهَارَ الحَقِّ لأَجْلِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، فَاللهُ – تَعَالَىٰ – يَعْصِمُهُ وَيُسَلِّمُهُ وَمَا رَأَيْنَا مِنْ رَدِّ الْبِدَعِ إِلاَّ السَّلاَمَةَ[٣].

---

(١) فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَىٰ اللهِ: رَدَّهُ إِلَيْهِ.
(٢) المُباغتة: المُفاجأة.
(٣) «الآداب الشَّرْعيَّة» (١/ ١٩٤ – ١٩٥).

تَعلُّقُ القَلْبِ بالله

وَالله، مَا أَعْتَمِدُ عَلَىٰ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِصَلاتِي وَصَوْمِي، بَلْ أَعْتَمِدُ إِذَا رَأَيْتُ قَلْبِي فِي الشَّدَائِدِ يَفْزَعُ إِلَيْهِ، وَشُكْرِي لِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ، وَقَالَ[١] : قَدْ صُنْتُكَ بِكُلِّ مَعْنًىٰ عَنْ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا لِعَبْدٍ، وَأَعْلَمْتُكَ أَنِّي أَنَا الخَالِقُ الرَّازِقُ، فَتَرَكْتَنِي، وَأَقْبَلْتَ عَلَىٰ الْعَبِيدِ، كُلُّكُمْ تَسْأَلُونِي وَقْتَ جَدْبِ المَطَرِ، وَبَعْدَ الإِجَابَةِ يَعْبُدُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا!.

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يوسف : ٣٩].

وَقَالَ - أَيْضًا - : أَمَا تَسْتَحْيِي وَأَنْتَ تُعَلِّمُ كَلْبَ الصَّيْدِ، فَلا يَأْخُذُ إِبْقَاءً عَلَيْكَ، فَيَقْبَلُ تَعَلُّمَكَ، وَتَكْسِرُ عَادِيَةَ طَبْعِهِ[٢] وَتَكَلُّبَ نَفْسِهِ عَنْ الْفَرِيسَةِ، وَهُوَ جَائِعٌ مُضْطَرٌّ إِلَيْهَا، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْتَ الصَّيْدَ، إِنْ شِئْتَ أَطْعَمْتَهُ، وَإِنْ شِئْتَ حَرَمْتَهُ، يَنْتَهِي حَالُكَ مَعِي - وَأَنَا المُنْعِمُ الَّذِي أَنْشَأْتُكَ، وَغَذَّيْتُكَ، وَرَبَّيْتُكَ - إِنَّنِي كَلَّفْتُكَ أَنْ تُمْسِكَ نَفْسَكَ عَنْ الْبَحْثِ فِيمَا يُسْخِطُنِي، لَمْ تَضْبِطْ نَفْسَكَ بَلْ غَلَبَتْكَ عَلَىٰ ارْتِكَابِ مَا نُهِيتَ وَعِصْيَانِ مَا أُمِرْتَ، بَلَغَتِ الصِّنَاعَةُ مِنْ هَذَا الحَيَوَانِ الخَسِيسِ أَنْ يَأْتَمِرَ إِذَا أُمِرَ، وَيَنْزَجِرَ إِذَا زُجِرَ، عُلِّقَتْ الآدَابُ بِالْبَهِيمِ، وَمَا تَعَلَّقَ بِقَلْبِكَ طُولُ الْعُمْرِ وَكَمَالُ الْعَقْلِ؟![٣].

---

(١) جملة «وَقَال ... إلخ» حاليَّة، والمعْنَىٰ: بَلْ أعتَمدُ علىٰ صدق إيماني به إذا رَأَيْتُ قَلْبي يَفْزَعُ إليه في الشَّدَائد، وشُكْرِي لنعَمه في السَّرَّاء، والحَالُ أنَّهُ قَالَ لي بلسان الصفح الجميل وهداية التَّنْزيل ما مَضْمُونُهُ: يا عَبْدي، قَدْ صُنْتُكَ.. إلخ.

(٢) عادية طبعه: فساده وظُلْمه، والجمع عَوَادٍ.

(٣) «الآداب الشَّرْعيَّة» (١/ ٢١٣).

الطِّبَاعُ الرَّدِيَّةُ أَبَالِسَةُ الإنْسانِ

الطِّبَاعُ الرَّدِيَّةُ أَبَالِسَةُ الإِنْسَانِ، وَالْعُقُولُ وَالأَدْيَانُ مَلائِكَةُ هَذَا الشَّأْنِ، ومنها خِلالٌ[١] تَعْتَلِجُ، وَلَهَا أَخْلاقٌ تَتَغَالَبُ، وَالشَّرَائِعُ مِنْ خَارِجِ هَذَا الجِسْمِ لِمَصَالِحِ الْعَالَمِ، وَمَا دَامَ الْعَبْدُ فِي الْعِلاجِ فَهُوَ طَالِبٌ، فَإِذَا غَلَّبَ الْعَقْلَ، وَاسْتَعْمَلَ الشَّرْعَ فَهُوَ وَاصِلٌ[٢].

مَذْهَبُ الْعَجَائِزِ أَسْلَمُ

قَدْ تَكَرَّرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ – لا سِيَّمَا أَصْحَابُنَا – قَوْلُهُمْ : مَذْهَبُ الْعَجَائِزِ أَسْلَمُ فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهُ كَلامُ جَهْلٍ، وَلَوْ فَطِنُوا لِمَا قَالُوا، لاسْتَحْسَنُوا وَقْعَ الْكَلِمَةِ وَإِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ صَدَرَتْ عَنْ عُلُوِّ رُتْبَةٍ فِي النَّظَرِ، حَيْثُ انْتَهَوْا إِلَىٰ غَايَةٍ هِيَ مُنْتَهَىٰ الْمُدَقِّقِينَ فِي النَّظَرِ[٣].

---

(١) خِلال: خِصال، جمعُ خَلَّةٍ – بالفتح –.

(٢) «الآداب الشَّرعيَّة» (١ / ٢١٤).

(٣) «الآداب الشَّرْعيَّة» (١ / ٢٧٣ – ٢٧٤).

الصَّبْرُ عَلَى الأَغْمَارِ(١)

وَاكَمَدَاهُ(٢) مِنْ مَخَالَفَةِ الأَغْمَارِ!، وَاحَصْرَاهُ(٣) مِنْ أَجْلِ اسْتِمَاعِ ذِي الجَهَالَةِ لِلحَقِّ وَالإِنْكَارِ!، وَاللهِ، مَا زَالَ خَوَاصُّ عِبَادِ اللهِ يَتَطَلَّبُونَ لِنُزُوحِهِمْ(٤) بِمُنَاجَاتِهِمْ رُءُوسَ الجِبَالِ وَالْبَرَارِي وَالْقِفَارِ(٥)؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ اسْتِزْرَاءِ الْمُنْكِرِينَ بِشَأْنِهِمْ مِنَ الأَغْمَارِ، إِلَىٰ أَنْ قَالَ: فَلا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُنْكِرَ تَضْلِيعَ أَحْوَالِهِ، وَتَكْدِيرَ عَيْشِهِ(٦).

حَالُ الجُهَّالِ مَعَ الوَقْتِ

الجُهَّالُ يَفْرَحُونَ بِسُوقِ الْوَقْتِ، حَتَّىٰ لَوْ اجْتَمَعَ أَلْفُ أَقْرَعَ(٧) يَزْعَقُونَ عَلَىٰ بَقَرَةِ هَرَّاسٍ - لَقَوِيَ قَلْبُهُ بِمَا يَعْتَقِدُ أُولَئِكَ، وَيَنْفِرُ قَلْبُهُ مِنْ أَدِلَّةِ الْمُحَقِّقِينَ، بَهِيمِيَّةٌ فِي طِبَاعِ الجُهَّالِ لا تَزُولُ بِمُعَالجَةٍ(٨).

---

(١) الأَغْمَار: جَمْعُ غُمْرٍ - بالضَّمِّ - ، وهُوَ الجَاهِلُ الغِرُّ الَّذي لم يُجَرِّبِ الأُمُورَ.

(٢) وَاكَمَدَاهْ: وا: حرف نداءٍ وَنُدْبَةٍ. والكَمَدُ: مَرَضُ القَلْبِ مِنْ حُزْنٍ شَدِيدٍ، وبَابُهُ فَرِحَ. والأَلِفُ: زَائِدٌ للدَّلالة عَلَىٰ النُّدْبَة. والهاء: للسَّكْت.

(٣) الحَصَرُ: ضِيقُ الصَّدْرِ، وبَابُهُ فَرِحَ، كما في قوْلِه - تَعَالَىٰ - : ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

(٤) النُّزُوح: الْبُعْد.

(٥) القِفَار: جَمْعُ قَفْرٍ - بالفتْح -، وهُوَ الخَلاءُ مِنَ الأَرْضِ، ويُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَىٰ قُفُورٍ.

(٦) «الآدابُ الشَّرعيَّة» (١ / ٢٨١ - ٢٨٣).

(٧) الأَقْرَع: الَّذي ذَهَبَ شَعْرُ رَأْسِه مِنْ آفَةٍ، والجَمْعُ قُرْعٌ وقُرْعَانٌ - بِضَمِّهِما - .

(٨) «الآداب الشَّرعيَّة» (١ / ٢٨٣).

اتقاء شر الأشرار

وَيْلٌ لِعَالِمٍ لاَ يَتَّقِي الجُهَّالَ بِجَهْدِهِ، قَالَ: وَكَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ التَّحَرُّزُ مِنْ مَضَارِّ الدُّنْيَا الْوَاقِعَةِ مِنْ جُهَّالِ أَهْلِهَا بِالتَّقِيَّةِ[١]، وَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَحْلِفُ بِالْمُصْحَفِ لأَجْلِ حَبَّةٍ، وَيَضْرِبُ بِالسَّيْفِ مَنْ لَقِيَ بِعَصَبِيَّةٍ، وَيَرَىٰ قَنَاةً[٢] مُلْقَاةً فِي الأَرْضِ، فَيَتَنَكَّبُ[٣] عَنْ أَخْذِهَا، وَالْوَيْلُ لِمَنْ رَآهُ أَكَبَّ رَغِيفًا عَلَىٰ وَجْهِهِ، أَوْ تَرَكَ نَعْلَهُ مَقْلُوبَةً ظَهْرُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، أَوْ دَخَلَ مَشْهَدًا[٤] بِمَدَاسِهِ[٥]، أَوْ دَخَلَ وَلَمْ يُقَبِّلْ الضَّرِيحَ[٦]. إِلَىٰ أَنْ قَالَ: هَلْ يَسُوغُ[٧] لِعَاقِلٍ أَنْ يُهْمِلَ هَؤُلاَءِ وَلاَ يَفْزَعُ مِنْهُمْ كُلَّ الْفَزَعِ، وَيَتَجَاهَلُ كُلَّ التَّجَاهُلِ فِي الأَخْذِ بِالاحْتِيَاطِ مِنْهُمْ؟!؛ فَإِنَّ الذُّنُوبَ مِمَّا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ عَنْهَا، وَلاَ إِقَالَةَ لِلْعَالِمِ مِنْ شَرِّ هَؤُلاَءِ، إِذَا زَلَّ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَكْرَهُونَ وَيُنْكِرُونَ، وَإِنْ ظَهَرَ مِنْهُ هَوَانٌ، وَأَبَىٰ إِلاَّ إِهْمَالَهُمْ، نَظَرًا إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الازْدِرَاءِ لَهُمْ - فَقَدْ ضَيَّعَ نَفْسَهُ؛ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمْ أَهْوَنُ، وَهُمْ مِنْهُ أَكْثَرُ، وَعَلَىٰ الإِضْرَارِ بِهِ أَقْدَرُ، وَهَلْ تَقَعُ المَكَارِهُ بِالْمُسْلِمِ إِلاَّ مِنْ هَؤُلاَءِ وَأَمْثَالِهِمْ؟!.

فَإِذَا احْتَشَمَ[٨] الإِنْسَانُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالحِكْمَةِ تَوْقِيرًا لَهُمْ وَتَعْظِيمًا، أَوْجَبَ

---

(١) التَّقِيَّة: الحَذَر والْهَيْبَة.
(٢) القَنَاة: الرُّمح، والجَمْعُ قَنَواتٌ، وقَنًا، وقُنِيٌّ - عَلَىٰ فُعُولٍ - وقَنَيَاتٌ.
(٣) يَتَنَكَّب: يَميل ويَعْدِلُ.
(٤) المَشْهَدُ: مَحْضَرُ النَّاسِ، والجَمْعُ المشاهدُ.
(٥) المَدَاس - بالفتح -: الَّذي يُلْبَسُ في الرِّجْلِ.
(٦) الضَّرِيح: القَبْر، والجمعُ: ضَرَائِحُ.
(٧) يَسُوغ: يَجُوز، وبَابُهُ قَالَ.
(٨) احْتَشمه: اسْتَحْيَاهُ.

الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ احْتِشَامَ هَؤُلاَءِ تَحَذُّرًا وَاتِّقَاءَ فَتْكِهِمْ[١]، وَهَلْ طَاحَتْ دِمَاءُ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ إِلاَّ بِأَيْدِي هَؤُلاَءِ وَأَمْثَالِهِمْ ؟!.

حَيْثُ رَأَوْا مِنَ التَّحْقِيقِ مَا يُنْكِرُونَ، فَصَالُوا لِمَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَغَالُوا[٢] لِمَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَهُمْ بَيْنَ قَاتِلٍ لِلْمُتَّقِينَ مُكَاشَفَةً حَالَ الْقُدْرَةِ، أَوْ غِيلَةً[٣] حَالَ العَجْزِ، فَاسْمَعْ هَذَا سَمَاعَ قَابِلٍ؛ فَإِنَّهُ قَوْلٌ مِنْ نَاصِحٍ خَبِيرٍ بِالْعَالَمِ، وَلاَ تُهَوِّنْ بِهِمْ؛ فَتُهَوِّنَ بِنَفْسِكَ، وَيَطِيحُ دَمُكَ مِمَّا رَأَيْتَ مِنْ جَهْلِهِمْ[٤].

بُرُودَةُ الدِّينِ فِي الْقَلْبِ

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَحَلَّ الإِسْلاَمِ مِنْ أَهْلِ الزَّمَانِ، فَلاَ تَنْظُرْ إِلَىٰ زِحَامِهِمْ فِي أَبْوَابِ الجَوَامِعِ، وَلاَ ضَجِيجِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ بِلَبَّيْكَ، وَإِنَّمَا انْظُرْ إِلَىٰ مُوَاطَأَتِهِمْ أَعْدَاءَ الشَّرِيعَةِ[٥]، عَاشَ ابْنُ الرَّاوَنْدِيِّ وَالْمَعَرِّيُّ عَلَيْهِمَا لَعَائِنُ اللهِ يَنْظِمُونَ وَيَنْثُرُونَ، هَذَا يَقُولُ : حَدِيثُ خُرَافَةَ[٦] وَالْمَعَرِّيُّ يَقُولُ :

---

(١) الفَتْكُ ـ مُثَلَّثَةً ـ : البَطْشُ وَالْقَتْلُ عَلَىٰ غَفْلَةٍ.

(٢) غَالُوا: بَالَغُوا.

(٣) الغيلة ـ بالكسر ـ : الخديعة والاغتيال.

(٤) «الآداب الشَّرعيَّة» (١ / ٢٨٢).

(٥) مُواطاتهم: مُوافقتهم، أي أَنَّهُمْ لا يَهْجُرُونَ أَعْدَاءَ الشَّرِيعَةِ، ولا يُحَذِّرون النَّاسَ مِنْهُمْ، ولا يُصَنِّفُونَ التَّصَانِيفَ في الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، والتَّنْفِيرِ مِنْهُم، ولا يَرْفَعُونَ أَمْرَهُمْ إِلَىٰ وُلاةِ الأُمُورِ كَسْرًا لِشَوْكَتِهِمْ، وإِقَامَةِ الحُدُودِ عَلَيْهِمْ.

(٦) الخُرَافَة ـ بالضَّمِّ ـ : الحَدِيثُ الْمُسْتَمْلَحُ مِنَ الْكَذِبِ، وَذُكِرَ فِي قَوْلِهِمْ: «حَدِيثُ خُرَافَةَ»، أَنَّ خُرَافَةَ اسْمُ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ، اخْتَطَفَتْهُ الجِنُّ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَكَانَ يُحَدِّثُ بِأَحَادِيثَ مِمَّا رَأَىٰ، يَعْجَبُ مِنْهَا النَّاسُ، فَكَذَّبُوهُ، فَجَرَىٰ عَلَىٰ أَلْسُنِ النَّاسِ.

وَقَالُوا: صَدَقْنَا، فَقُلْنَا: نَعَمْ تَلَوْا بَاطِلاً، وَجَلَوْا[١] صَارِمًا[٢]

يَعْنِي بِالْبَاطِلِ: كِتَابَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، وَعَاشُوا سِنِينَ، وَعُظِّمَتْ قُبُورُهُمْ، وَاشْتُرِيَتْ تَصَانِيفُهُمْ!، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ بُرُودَةِ الدِّينِ فِي الْقَلْبِ[٣].

رِضَاءُ النَّاسِ

مَنْ صَدَرَ اعْتِقَادُهُ عَنْ بُرْهَانٍ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ تَلَوُّنٌ يُرَاعِي بِهِ أَحْوَالَ الرِّجَالِ، ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤][٤].

هِجْرَانُ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالمَعَاصِي

الصَّحَابَةُ – رضي الله عنهم – آثَرُوا فِرَاقَ نُفُوسِهِمْ لأَجْلِ مُخَالَفَتِهَا لِلْخَالِقِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ –، فَهَذَا يَقُولُ: زَنَيْت فَطَهِّرْنِي، وَنَحْنُ لاَ نَسْخُو[٥] أَنْ نُقَاطِعَ أَحَدًا فِيهِ لِمَكَانِ الْمُخَالَفَةِ![٦].

---

(١) جَلا السَّيْف: صَقَلَهُ وَأَخْلَصَهُ مِنَ الصَّدَأ، وَبَابُهُ عَدَا، وَجِلاءً – أَيْضًا – بالكَسْرِ والمَدِّ.

(٢) الصَّارِمُ: السَّيْف القَاطِع، والجَمْعُ صَوَارِمُ.

(٣) «الآدابُ الشَّرْعِيَّة» (١/٣٠٩).

(٤) المرجعُ السَّابقُ (١/٣٤١).

(٥) السَّخَاء: الجُودُ والكَرَمُ.

(٦) «الآدابُ الشَّرْعِيَّة» (١/٣٠٧).

كَمَالُ الأَدَبِ فِي مُرَاقَبَةِ النَّفْسِ

مِنْ كَمَالِ الأَدَبِ تَلَمُّحُ النَّفْسِ، وَإِزَالَةُ كُلِّ مَا يُكْرَهُ مِنْهَا وَيُؤْذِي عِنْدَ المُخَالَطَةِ، وَإِنْ أَمْكَنَ ذَاكَ، وَإِلاَّ فَإِرَاحَةُ النَّاسِ بِالانْفِرَادِ وَالاعْتِزَالِ؛ فَالثَّقِيلُ المُخَالِطُ سَقَمٌ فِي الأَبْدَانِ، وَمُؤْنَةٌ[1] عَلَىٰ القُلُوبِ، وَتَضْيِيقٌ لِلأَنْفَاسِ، وَحَصْرٌ[2] لِلْحَوَاسِّ[3]، وَالأَلَمُ[4] يُعَرِّي الأَرْوَاحَ فَضْلاً عَنِ الأَشْبَاحِ[5]، وَالقَذِرُ نَغْصَةُ المَجَالِسِ، وَالمُسْتَعْلِمُ عَمَّا يَسْتُرُهُ النَّاسُ مُكَشِّفٌ لأَسْتَارِ التَّجَمُّلِ، وَالأَرْعَنُ[6] مُرْتَعِدُ الطِّبَاعِ المَغْلُوبَةِ بِالحِكْمَةِ، وَالأَحْمَقُ مُفْسِدٌ لِلقَوَانِينِ، وَمُحْوِجٌ إِلَىٰ سُوءِ أَخْلاقِ المُعَلِّمِينَ، وَمُزْرٍ[7] عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَالمُهَازِلُ مُسْقِطٌ لِوَقَارِ[8] المَجَالِسِ، مُذْهِبٌ لِحِشْمَةِ[9] المَنَازِلِ، وَمَا حَطَّ شَرَفًا مِثْلُ هَزْلٍ - وَقَطْعُ الرَّوَائِحِ الْكَرِيهَةِ[10]، وَالْبُعْدُ عَنْ مَجَالِسِ الأُنْسِ، فَكَمْ مِنْ أَنِيسٍ بَيْنَ جُلَسَاءَ أَوْحَشَهُ مُدَاخَلَةُ ثَقِيلٍ يَجْهَلُ ثِقَلَ نَفْسِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، وَتَقْلِيلُ الْكَلامِ مِنْ حُسْنِ الإِصْغَاءِ وَالإِنْصَاتِ، وَالْبُعْدُ عَنِ الْعَامِلِينَ ذَوِي النَّشَاطِ إِذَا اعْتَرَاكَ التَّثَاؤُبُ[11] وَالنُّعَاسُ؛

---

(١) المُؤْنَة - بالضَّمِّ - : الثِّقَلُ، والجَمْعُ مُؤَنٌ.
(٢) الحَصْر: الحَبْسُ، وبَابُهُ نَصَرَ وضَرَبَ.
(٣) الحَوَاسُّ: المشاعرُ الخَمْسُ: السَّمْعُ، والبَصَرُ، والشَّمُّ، والذَّوْقُ، واللَّمْسُ.
(٤) الأَلِمُ: الوَجِعُ المُتَأَلِّمُ.
(٥) الأَشْبَاحُ: الأَشْخَاص، جَمْعُ شَبَحٍ - بالتَّحْرِيكِ ويُسَكَّنُ -.
(٦) الأَرْعَن: الأَهْوَجُ في مَنْطِقِهِ المُسْتَرْخِي، والجَمْعُ رُعْنٌ.
(٧) مُزْرٍ: عائب.
(٨) الوَقَار - بالفَتْحِ - : الحِلْمُ والرَّزَانَةُ.
(٩) الحِشْمَة - بالكسر - : الحَيَاء والانقباض.
(١٠) هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ: تَلَمُّحِ النَّفْسِ، يَعْنِي أَنَّهُ من كمالِ الأَدَبِ، ومِثْلُهُ قوله: والبُعْد.. إلخ، وقوله: وتَقْليل الكلام.. إلخ.
(١١) التَّثَاؤُب: أَنْ يَأْكلَ الإنسانُ شيئًا، أَوْ يَشْرَبُ شيئًا، يَغْشَاهُ لَهُ كَسَلٌ وَفَتْرَةٌ كَفَتْرَةِ النُّعَاسِ.

فَذَلِكَ يُكْسِلُ الْعُمَّالَ وَيُفَتِّرُ الصُّنَّاعَ، وَانْتِقَاءُ الأَلْفَاظِ قَبْلَ إِخْرَاجِهَا إِلَىٰ الأَسْمَاعِ فَكَمْ مِنْ نَمٍّ[١] أَرَاقَ دِمَاءَكُمْ مِنْ حَرْفٍ جَرَّ حَنَقًا[٢] وَإِيَّاكَ وَالْكَلامَ فِيمَا لَيْسَ مِنْ مَجَالِكَ؛ فَذَاكَ يَحُطُّ قَدْرَكَ، وَيَكْشِفُ عَنْ مَحَلِّكَ؛ وَأَنْتَ مَعَ سُكُوتِكَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِكَ، تَتَرَامَىٰ ظُنُونُ النَّاسِ فِيكَ بَيْنَ مَنْ يَعْتَقِدُكَ بِذَلِكَ عَالِمًا؛ فَإِذَا ظَهَرَ مِقْدَارُكَ مِنْ لَفْظِكَ تَعَجَّلَ سُقُوطُ قَدْرِكَ .

لا تُوَاكِلَنَّ جَائِعًا إِلاَّ بِالإِيثَارِ[٣]، وَلاَ تُوَاكِلَنَّ غَنِيًّا إِلاَّ بِالأَدَبِ، وَلاَ تُوَاكِلَنَّ ضَيْفًا إِلاَّ بِالنَّهْمَةِ[٤] وَالانْبِسَاطِ، وَلاَ تَلْقَيَنَّ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ وَإِنْ كُنْتَ نَاصِحًا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُنَفِّرُهُ عَنِ الْقَبُولِ لِنُصْحِكَ، وَلاَ تَدْعُهُ مِنَ الأَسْمَاءِ إِلاَّ بِأَحَبِّهَا إِلَيْهِ، وَتَغَافَلْ[٥] عَنْ هَفَوَاتِ النَّاسِ فَذَلِكَ دَاعِيَةٌ لِدَوَامِ الْعِشْرَةِ، وَسَلامَةِ الْوُدِّ، وَخَفِّفْ مُؤْنَتَكَ بِتَرْكِ الشَّكْوَىٰ، وَإِذَا كَرِهْتَ مِنْ غَيْرِكَ خُلُقًا فَلا تَأْتِهِ، وَإِذَا حَمِدْتَهُ فَتَخَلَّقْ بِهِ، وَلاَ تَسْتَصْغِرْ كَبِيرَ الذَّنْبِ فَتَعْرَىٰ، وَلاَ تَسْتَكْبِرْ صَغِيرَهَا فَتَيْأَسْ، وَأَعْطِ كُلَّ ذَنْبٍ حَقَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ إِنْ قَدَرْتَ، وَمِنَ اللاَّئِمَةِ وَالْهِجْرَانِ إِنْ عَنِ الْعُقُوبَةِ عَجَزْتَ وَلاَ تَقْتَضِ النَّاسَ[٦] بِجَرَّاءِ إِحْسَانِكَ اقْتِضَاءَ الْبَائِعِ بِثَمَنِ سِلْعَتِهِ[٧]، وَلاَ تَمْنُنْ

---

(١) النَّمُّ: نَقْلُ الحَدِيثِ إِشاعةً لَهُ وإِفْسَادًا، وبَابُهُ نَصَرَ وَضَرَبَ.

(٢) الحَنَقُ ـ مُحَرَّكَةً ـ : الغَيْظُ أَو شِدَّتُهُ، والجَمْعُ حِنَاقٌ كَجَبَلٍ وَجِبَالٍ.

(٣) الإِيثَارُ: تقديمُ الغَيْرِ علَىٰ النَّفْسِ وَتَفْضِيلُه.

(٤) النَّهْمَة ـ بالفتح ـ : بُلُوغ الهِمَّة والشَّهْوَةِ في الشَّيْءِ.

(٥) تَغَافَلَ: تَظَاهَرَ بالغَفْلَة.

(٦) لا تَقْتَضِ النَّاسَ: لا تَأْخُذْ مِنْهُمْ جَزَاءً.

(٧) السِّلْعَة ـ بالكسر ـ : البِضَاعَة، والجَمْعُ سِلَعٌ.

عَلَيْهِمْ[١]؛ فَالمَنُّ اسْتِيفَاءٌ لِمَعْرُوفِك أَوْ تَكْدِيرٌ لِبِرِّك فَإِنْ قَدَرْت عَلَىٰ هَذِهِ الخَلائِقِ فِي مُعَاشَرَتِك وَإِلاَّ فَالْعُزْلَةُ خَيْرٌ لَك وَخَيْرٌ لِلنَّاسِ؛ فَإِنَّك بِسَتْرِ نَفْسِك تَسْتَرِيحُ مِنْ احْتِقَابِ[٢] الآثَامِ بِإِسْقَاطِ جُرْمِ[٣] الأَنَامِ، وَالسَّلامُ[٤].

الإغْضَاءُ[٥] عَنْ زَلاَّتِ القُرُونِ الثَّلاثَةِ

إِنَّهُ – كَمَا يَجِبُ الإِغْضَاءُ عَنْ زَلاَّتِ الْوَالِدَيْنِ – يَجِبُ الإِغْضَاءُ عَنْ زَلاَّتِ القُرُونِ الثَّلاثَةِ، الَّذِينَ قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – فِيهِم: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[٦]. وَإِذَا شَبَّهْنَاهُمْ بِالْوَالِدَيْنِ، يَجِبُ تَوْقِيرُهُمْ[٧] وَاحْتِرَامُهُمْ كَمَا فِي الْوَالِدَيْنِ[٨].

---

(١) مَنَّ عَلَيْهِ – مِنْ بَابِ رَدَّ وَمِنَّةً أيضًا – : عَدَّدَ لَهُ مَا فَعَلَ لَهُ مِنَ الصَّنَائِعِ، وَفَخَرَ بِهَا عَلَيْهِ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: أَعْطَيْتُكَ، وفَعَلْتُ لَكَ، وَهُوَ تَكْدِيرٌ وَتَغْيِيرٌ تَنْكَسِرُ مِنْهُ القُلُوبُ؛ فلهَذَا نَهَىٰ الشَّارِعُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وَمِنْ هُنَا يُقَالُ: المِنَّةُ تَهْدِمُ الصَّنِيعَةَ.

(٢) احتقاب: احْتِمال.

(٣) الجُرْم – بالضَّمِّ – : الذَّنْب، والجَمْعُ أَجْرَامٌ وَجُرُومٌ.

(٤) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (٤ / ٢٤٧) – ٢٤٩).

(٥) الإغْضاء: الإمساك، وهو في الأصل: إطباق الجَفْنَيْنِ عَلَىٰ الحَدَقَة.

(٦) صحيحٌ، أخرجه أحمدُ (٤ / ٢٦٧)، واللَّفْظُ لَهُ، وهُوَ بِأَلْفاظٍ أُخْرَىٰ في البُخَارِيِّ (٦٦٥٨)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٧) التَّوْقِير: التَّعْظِيم.

(٨) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (٢ / ٦٧).

المَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِه

لاَ يَصْلُحُ لِلْكَلامِ عَلَىٰ الْعَوَامِّ مُلْحِدٌ[١] ، وَلاَ أَبْلَهُ[٢] ، وَكِلاهُمَا يُفْسِدُ مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ الإِيمَانِ.

وَقَالَ : المَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِه وَلاَ بُدَّ أَنْ يَنْكَشِفَ قَصْدُهُ مِنْ صَفَحَاتِ وَجْهِهِ، وَقَلْبِه، أَوْ لِسَانِه. وَقَالَ: مَا أَخْوَفَنِي عَلَىٰ مَنْ كَانَت الدُّنْيَا أَكْبَرَ هِمِّهِ أَنْ تَكُونَ غَايَةَ حَظِّهِ![٣].

قُصُورُ الأَعْمَارِ مَعَ بُلُوغِ الْغَايَاتِ

وَجَدْت فِي تَعَالِيقِ مُحَقِّقٍ أَنَّ سَبْعَةً مِنْ الْعُلَمَاءِ مَاتَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَلَهُ سِتٌّ وَثَلاثُونَ سَنَةً، فَعَجِبْت مِنْ قُصُورِ أَعْمَارِهِمْ مَعَ بُلُوغِهِمْ الْغَايَةَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ، فَمِنْهُمْ الإِسْكَنْدَرُ ذُو الْقَرْنَيْنِ - وَقَدْ مَلَكَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ -، وَأَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَابْنُ الْمُقَفَّعِ صَاحِبُ الْخَطَابَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَسِيبَوَيْهِ صَاحِبُ التَّصَانِيفِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَأَبُو تَمَّامٍ الطَّائِيُّ فِي عِلْمِ الشِّعْرِ،

---

(١) المُلْحِدُ: المَائِلُ عَنِ الحَقِّ المُدْخِلُ فيه مَا لَيْسَ فيه.

(٢) الأَبْلَهُ: الأَحْمَقُ الَّذي لا تَمْييزَ لَهُ، والجَمْعُ بُلْهٌ.

(٣) «الآدابُ الشَّرْعيَّة» (٢ / ١٨٥).

وَإِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ فِي عِلْمِ الْكَلامِ، وَابْنُ الرَّاوَنْدِيِّ فِي المَخَازِي، وَلَهُ كِتَابُ (الدَّامِغِ) مِمَّا غُرَّ بِهِ أَهْلُ الخَلاعَةِ، وَلَهُ (الجَدَلُ)[١][٢].

الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ

مِنْ أَكْبَرِ مَا يُفَوِّتُ الْفَوَائِدَ تَرْكُ التَّلَمُّحِ لِلْمَعَانِي الصَّادِرَةِ عَمَّنْ لَيْسَ بِمَحَلٍّ لِلْحِكْمَةِ، أَتَرَىٰ يَمْنَعُنِي مِنْ أَخْذِ اللُّؤْلُؤَةِ وِجْدَانِي لَهَا فِي مَزْبَلَةٍ؟!، كَلاَّ، سَمِعْتُ كَلِمَةً بَقِيتُ مِنْ قَلَقِهَا مُدَّةً، وَهِيَ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تَقُولُ عَلَىٰ شُغْلِهَا، وَتَتَرَنَّمُ[٣] بِهَا: كَمْ كُنْتَ - بِاللهِ - أَقُولُ لَكَ: إِنَّ لِلتَّوَانِي غَائِلَةً، وَلِلْقَبِيحِ خَمِيرَةً[٤] تَبِينُ بَعْدَ قَلِيلٍ، فَمَا أَوْقَعَهَا مِنْ تَخْجِيلٍ عَلَىٰ إِهْمَالِنَا لِلأُمُورِ!، غَدًا تَبِينُ خَمَائِرُهَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -[٥].

---

(١) ليس كلهم علماء شريعة، بل جلُّهم عُلَمَاء في فنهم؛ فذو القرنين كان من صالحي عباد الله، ولا نعلم مبلغه من العلم، وأبو مسلم سفاح، وابن المقفع زنديق، وسيبويه إمامٌ في العَربيَّة لا مُنَازِعَ له، وأبو تمَّام شاعر لا يلحق إلاَّ ما كان من المتنبي؛ فقد سبقه سبقًا بعيدًا، وإبراهيم النظام معتزليّ جلَد مُنكرٌ للنبوَّة والبعث، وابن الرَّاونديّ زنديق ملحد.

(٢) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢ / ٢١٤).

(٣) تترنَّم: تُرَجِّعُ صَوْتَهَا وَتُطَرِّبُهُ.

(٤) الخَميرة: مَا سُتِرَتْ وَأُضْمِرَتْ، والجَمْعُ خَمَائِرُ.

(٥) «الآدابُ الشَّرْعِيَّة» (٢ / ٢١٥).

الاستراحة إلى نوع من الشكوى

قَوْلُهُ ـ تَعَالَىٰ ـ : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف : ٦٢]. يَدُلُّ عَلَىٰ جَوَازِ الاسْتِرَاحَةِ إِلَىٰ نَوْعٍ مِنَ الشَّكْوَىٰ عِنْدَ مَسَاسِ الْبَلْوَىٰ، وَنَظِيرُهُ: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يُوسُف : ٨٤]، ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ [الأنبياء : ٨٣][١].

من لطف الله بعبده

النِّعَمُ أَضْيَافٌ، وَقِرَاهَا[٢] الشُّكْرُ، وَالْبَلَايَا أَضْيَافٌ، وَقِرَاهَا الصَّبْرُ، فَاجْتَهِدْ أَنْ تَرْحَلَ الأَضْيَافُ شَاكِرَةً حُسْنَ الْقِرَىٰ، شَاهِدَةً بِمَا تَسْمَعُ وَتَرَىٰ . وَقَالَ : مِنْ أَحْسَنِ ظَنِّي بِهِ أَنَّهُ بَلَغَ مِنْ لُطْفِهِ أَنْ وَصَّىٰ وَلَدِي إِذَا كَبِرْتُ، فَقَالَ: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فَأَرْجُو إِذَا صِرْتُ عِنْدَهُ رَمِيمًا أَنْ لَا يَعْسِفَ[٣]؛ لأَنَّ أَفْعَالَهُ، تُشَاكِلُ أَقْوَالَهُ[٤].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢ / ٢٩٠).

(٢) القِرَىٰ ـ بالكسر ـ : ما قُرِيَ به الضَّيْفُ، وَقَرَىٰ الضَّيْفَ يَقْرِيهِ قِرًىٰ ـ بالكَسْرِ وَالقَصْرِ ـ وقَرَاءً ـ بالفتحِ والمدِّ ـ : أَضَافَهُ وَأَحْسَنَ إِليه.

(٣) العَسْفُ: الظُّلْم، وبابُهُ ضَرَبَ، وربُّنا ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ لا يظْلِمُ مثقَالَ ذَرةٍ ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [الكهف : ٤٩]، وإنّما نخاف من عدله، فنحن نسأله أن يُعاملنا بفضله، ولَوْ عَاملنا بعدْله لَهَلَكْنَا، وهُنَا تَنْبيه: أنه يجب علىٰ المرءِ أن يسأل اللهَ أن يعاملنا بفضله ولا يجوز أن نسأله ـ تعَالَىٰ ـ أن يُعاملنا بعدله، فنحن قوم مساكين ما نستطيع نوفي نعمة البصر حقّها، نسأل الله ـ سُبْحانه وتعَالَىٰ ـ أن يُعاملنا بفضله، فهو ـ سبحانه ـ ذو الفضل العظيم.

(٤) «الآداب الشّرعيّة» (٢ / ٢٩١).

عجزُ العقلِ عن ملاحظةِ العواقبِ

قَدْ نَبَّهْنَا عَلَىٰ الْعَجْزِ عَنْ مُلاحَظَةِ الْعَوَاقِبِ، فَقَالَ - تَعَالَىٰ - : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فَفِي عُقُولِنَا قُوَّةُ التَّسْلِيمِ، وَلَيْسَ فِيهَا قُدْرَةُ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، وَقَدْ يَدْعُو الإِنْسَانُ فَلا يُجَابُ فَيَنْدَمُ، وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الطَّاعَةِ فَيَتَوَقَّفُ، فَالْعَجَبُ مِنْ عَبِيدٍ يَقْتَضُونَ[١] الْمَوَالِيَ[٢] اقْتِضَاءَ الْغَرِيمِ[٣]، وَلاَ يَقْتَضُونَ أَنْفُسَهُمْ بِحُقُوقِ الْمَوَالِي[٤]!.

حَالُ بَعْضِ الْعَوَامِّ

الْوَاحِدُ مِنْ الْعَوَامِّ إِذَا رَأَىٰ مَرَاكِبَ مُقَلَّدَةً[٥] بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَدُورًا مُشَيَّدَةً[٦] مَمْلُوءَةً بِالْخَدَمِ وَالزِّينَةِ - قَالَ: أُنْظُرْ إِلَىٰ مَا أَعْطَاهُمْ مَعَ سُوءِ فِعَالِهِمْ، وَلاَ يَزَالُ يَلْعَنُهُمْ وَيَذُمُّ مُعْطِيَهُمْ، وَيُشْفِقُ حَتَّىٰ يَقُولَ: فُلانٌ يُصَلِّي الْجَمَاعَاتِ

---

(١) اقْتَضَىٰ الغَرِيمُ دَيْنَهُ: قَبَضَهُ وَأَخَذَهُ.
(٢) المَوَالِي: جَمْعُ المَوْلَىٰ، وهُوَ المَالِكُ.
(٣) الغَرِيم: الدَّائِن، والمَدْيُونُ ضِدٌّ، والمُرَادُ بِهِ هُنَا الدَّائِنُ.
(٤) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢ / ٣٠٤).
(٥) قَلَّدْتُهَا قِلادَةً: جَعَلْتُهَا في عُنُقِهَا.
(٦) مُشَيَّدَة: مُحْكَمَة وَمَرْفُوعَة.

وَالجُمع، وَلاَ يَذُوقُ قَطْرَةَ خَمْرٍ، وَلاَ يُؤْذِي الذَّرَّ[١]، وَلاَ يَأْخُذُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَيُؤَدِّي الزَّكَاةَ – إِذَا كَانَ لَهُ مَالٌ –، وَيَحُجُّ وَيُجَاهِدُ، وَلاَ يَنَالُ خُلَّةً[٢] بِقْلَةٍ، وَيُظْهِرُ الإِعْجَابَ كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ تَخَايُلِه[٣] أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الشَّرَائِعُ حَقًّا لَكَانَ الأَمْرُ بِخِلافِ مَا نَرَىٰ، وَكَانَ الصَّالِحُ غَنِيًّا وَالْفَاسِقُ فَقِيراً، مَا ذَاكَ إِلاَّ لأَنَّهُ لحَظَ أَنَّ اللهَ أَعْطَىٰ هَذَا أَمْوَالَ الأَيْتَامِ وَالْوُقُوفِ، بِأَنْ يَأْكُلَ الرِّبَا وَيُفَاسِدَ الْعُقُودَ، وَهَذَا افْتِئَاتٌ[٤] وَتَجَوُّزٌ وَسَخَطٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

فَإِنَّ لله كِتَابًا قَدْ مَلأَهُ بِالنَّهْيِ وَحِرْمَانِ أَخْذِ المَالِ الحَرَامِ وَأَكْلِه بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَوْ كَانَ مُنْصِفًا لَقَالَ لَهُ: تَدَبَّرْ، هَذَا كِتَابُ اللهِ مَمْلُوءٌ بِالنَّهْيِ وَالْوَعِيدِ، فَصَارَ الْفَرِيقَانِ مَلْعُونَيْنِ: هَذَا بِكُفْرِهِ، وَهَذَا بِارْتِكَابِ النَّهْيِ[٥].

استقْلالُ البَلاءِ

إِذَا تَأَمَّلَ الْمُتَدَيِّنُ أَفْعَالَ الخَلْقِ فِي مُقَابَلَةِ إِنْعَامِ الحَقِّ، اسْتَكْثَرَ لَهُمْ شَمَّ الْهَوَاءِ، وَاسْتَقَلَّ لَهُمْ مِنْ اللهِ – سُبْحَانَهُ – أَكْثَرَ الْبَلاءِ، إِذَا رَأَىٰ هَذِهِ الدَّارَ الْمُزَخْرَفَةَ بِأَنْوَاعِ الزَّخَارِيفِ، الْمُعَدَّةَ لجَمِيعِ التَّصَارِيفِ وَاصْطِبَاغًا[٦] وَأَشْرِبَةً وَأَدْوِيَةً، وَأَقْوَاتًا[٧]

---

(١) الذَّرّ – بالفتح –: صغَار النَّمْلِ، الواحدَةُ ذَرَّةٌ.
(٢) الخُلَّة – بالضَّمِّ –: ما فيه حَلاوَةٌ مِنَ النَّبْتِ.
(٣) تَخايله: تَكَبُّره وإعْجابه بنَفْسه.
(٤) الافتئات: الافتراء والاختلاق.
(٥) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢/٣٠٥).
(٦) الاصطباغ: الائْتدام بالصِّبْغ – بالكسر –، وهو الزَّيْت.
(٧) الأقوات: جمعُ قُوتٍ – بالضَّمِّ –، وهو ما يقومُ به بَدَنُ الإنْسانِ من الطَّعَامِ.

وَإِدَامًا(١) وَفَاكِهَةً، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعَقَاقِيرِ، ثُمَّ إِرْخَاءَ السَّحَابِ بِالْغُيُوثِ فِي زَمَنِ الحَاجَاتِ ثُمَّ تَطْيِيبَ الأَمْزِجَةِ وَإِحْيَاءَ النَّبَاتِ، وَخَلْقَ هَذِهِ الأَبْنِيَةِ عَلَىٰ أَحْسَنِ إِتْقَانٍ، وَتَسْخِيرَ الرِّيَاحِ وَالنَّسِيمِ(٢) المُعَدِّ للأَنْفَاسِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ النِّعَمِ، ثُمَّ نِعْمَةَ الْعَقْلِ وَالذِّهْنِ ثُمَّ سَائِرَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ الصَّانِعِ، ثُمَّ إِنْزَالَ الْكُتُبِ الَّتِي تَحُثُّ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ وَتَرْدَعُ عَنِ المُخَالَفَةِ، ثُمَّ اللُّطْفَ بِالمُكَلَّفِ، وَإِبَاحَةَ الشِّرْكِ مَعَ الإِكْرَاهِ، وَأَمَرَ بِالجُمُعَةِ، فَضَايَقُوهُ فِي سَاعَةِ السَّعْيِ بِنَفْسِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنْ الْبَيْعِ فِي أَبْوَابِ الْعِبَادَاتِ، وَعَظَّمُوا كُلَّ مَا هَوَّنَهُ وَارْتَكَبُوا كُلَّ مَا هَوَّنَهُ حَتَّىٰ اسْتَخَفُّوا بِحُرْمَةِ كِتَابِهِ، فَأَنَا أَسْتَقِلُّ لَهُمْ كُلَّ مِحْنَةٍ(٣).

هِجْرَانُ الدُّنْيَا

هِجْرَانُ الدُّنْيَا فِي عَصْرِنَا هَذَا لَيْسَ مِنْ الزُّهْدِ فِي شَيْءٍ، إِنَّمَا الْمُنْقَطِعُ أَنِفَ مِنْ الذُّلِّ(٤)؛ فَإِنَّ مُخَالَطَةَ الْقُذَرَاءِ قَذَارَةٌ، وَالتَّخَلِّي عَنْهُمْ نَزَاهَةٌ، وَمَنْ طَلَّقَ عَجُوزًا مُنَاقِرَةً(٥) فَلا عَجَبَ(٦)(٧).

---

(١) الإِدامُ: ما يُؤْكَلُ بالخُبْزِ، مائعًا كان أو جامدًا، والجَمْعُ آدمةٌ.

(٢) النَّسيم: نَفَس الرِّيح إذا كان ضعيفًا، والجَمْعُ: أنسامٌ.

(٣) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢/٣٠٥ – ٣٠٦).

(٤) أنِفَ منَ الذُّلِّ: اسْتَنْكَفَ وَتَنَزَّهَ عنهُ، وبابُهُ فَرِحَ، وأَنَفَةً أيْضًا – بالتَّحْريك –.

(٥) مُنَاقِرَة: مُنَازِعَة مُراجِعَةٌ للكلام.

(٦) قلْتُ: في عَصْرِنا هذا تزَيَّنَت العَجُوزُ بِكُلِّ أنواعِ الزِّينَة، حتَّىٰ أسْكَرَت النَّاسَ بحُبِّها؛ فَهُمْ يَتَنَافَسُونَ في وُدِّها، ويَتَسابَقُونَ عَلَىٰ الزَّوَاجِ بِهَا، وَبَعْدَ السَّكْرَةِ تَأْتي الفِكْرَةُ، بَلْ قَدْ لا يَفِيقُ البَعْضُ إِلاَّ عِنْدَ الغَرْغَرَةِ، فَاللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ!.

(٧) «الآدابُ الشَّرْعيَّة» (٢/٣٦١).

العزُّ في القناعة

لَوْ عَلِمْت قَدْرَ الرَّاحَةِ فِي الْقَنَاعَةِ وَالْعِزِّ الَّذي فِي مَدَارِجِهَا[١] - عَلِمْتَ أَنَّهَا الْعِيشَةُ الطَّيِّبَةُ؛ لأَنَّ الْقَنُوعَ قَدْ كُفِيَ تَكَلُّبَ طِبَاعِه، وَالطَّبْعُ كَالصِّبْيَانِ الرُّعْنِ[٢]، وَمَنْ بُلِيَ بِذَلِكَ أَذْهَبَ وَقْتَهُ فِي أَخَسِّ المَطَالِبِ، وَفَاتَتْهُ الْفَضَائِلُ؛ فَأَصْبَحَ كَمُرَبِّي طِفْلٍ يَتَصَابَىٰ[٣] لَهُ، وَيَجْتَهِدُ فِي تَسْكِينِ طِبَاعِه، تَارَةً بِلُعْبَةٍ تُلْهِيه، وَتَارَةً بِشَهْوَةٍ، وَتَارَةً بِكَلامِ الأَطْفَالِ، وَمَنْ كَانَ دَأْبهُ التَّصَابِي، مَتَىٰ يَذُوقُ طَعْمَ المَرْجَلَةِ؟!، وَمَنْ كَانَ فِي طَبْعِهِ كَذَا، فَمَتَىٰ يَسْتَعْمِلُ عَقْلَهُ؟![٤].

الحياةُ الطَّيِّبة

وَالحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ التَّفْوِيضُ إِلَىٰ اللهِ، كَالصَّبِيِّ حَالَ التَّرْبِيَةِ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَىٰ وَالِدَيْه، وَيَثِقُ بِهِمَا مُسْتَرِيحًا مِنْ كَدِّ التَّخَيُّرِ، فَلا يَتَخَيَّرُ لِنَفْسِهِ مَعَ تَفْوِيضِهِ إِلَىٰ مَنْ يَخْتَارُ لَهُ، المُفَوِّضُ وَثِقَ بِالمُفَوَّضِ إِلَيْه[٥].

---

(١) مَدَارِجها: مسالكها، جمعُ مَدْرَجٍ.

(٢) الرُّعْن: الحَمْقَىٰ، جَمْعُ الأَرْعَنِ.

(٣) التَّصَابي: المَيْلُ إِلَىٰ الجَهْلِ والفُتُوَّة.

(٤) «الآدابُ الشَّرْعيَّة» (٢/ ٣٦١).

(٥) «الآدابُ الشَّرْعيَّة» (٢/ ٣٦١).

﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾

وَقَالَ – بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ عَلَىٰ قَوْلِهِ –تَعَالَىٰ –: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى ﴾ [النِّسَاء:٦]، وَاللهُ – سُبْحَانَهُ – يُنَبِّهُكَ عَلَىٰ الاحْتِيَاطِ لِنَفْسِكَ وَسِرِّكَ وَمَالِكَ، بِالاحْتِيَاطِ لِمَالِ غَيْرِكَ، لَقَدْ أَوْجَبَ عَلَيْكَ ذَلِكَ التَّحَرُّزَ وَالتَّحَفُّظَ وَالارْتِيَادَ[١] وَالْمُبَالَغَةَ فِي الانْتِقَادِ لِكُلِّ مَحَلٍّ تُودِعُهُ سِرًّا أَوْ مَالاً أَوْ تَرْجِعُ إِلَيْهِ، أَوْ مَشُورَةٍ تَقْتَبِسُ بِهَا رَأْيًا، وَنَبَّهَكَ عَلَىٰ مَا هُوَ آكَدُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنْ تَعْلَمَ بِأَنَّكَ – وَإِنْ بَلَغْتَ الْغَايَةَ مِنَ الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ – يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ الْبَارِي – سُبْحَانَهُ – تَقْصِيرَكَ عَنْ تَدْبِيرِ نَفْسِكَ، فَإِذَا بَالَغْتَ فِي الدُّعَاءِ الْمَحْبُوبِ لِنَفْسِكَ جَازَ لَهُ – سُبْحَانَهُ – أَنْ يُعْطِيَكَ بِحَسَبِ مَا طَلَبْتَ، وَلاَ يُرْخِي لِذَلِكَ الْعِنَانَ[٢] بِحُكْمِ مَا لَهُ أَرَدْتَ، بَلْ يَحْبِسُ عَنْكَ لِصَلاحِكَ، وَيُضَيِّقُ عَلَيْكَ مَا وَسَّعَهُ عَلَىٰ غَيْرِكَ نَظَرًا لَكَ؛ لأَنَّكَ فِي حِجْرِ الرُّبُوبِيَّةِ مَا دُمْتَ عَبْدًا، فَإِذَا أَخْرَجَكَ عَنْ رِبْقَةِ[٣] التَّكْلِيفِ سَرَّحَكَ[٤] تَسْرِيحًا، وَلاَ تَطْلُبْ التَّخْلِيَةَ حَالَ حَبْسِكَ، وَلاَ التَّصَرُّفَ بِحَسْبِ مُرَادِكَ حَالَ حَجْرِكَ، فَلَسْتَ رَشِيدًا فِي مَصَالِحِكَ، فَكُنْ بِاللهِ كَالْيَتِيمِ، مَعَ الْوَلِيِّ[٥] الْحَمِيمِ[٦]، تَسْتَرِحْ مِنْ كَدِّ التَّسَخُّطِ، وَتَنْجُ مِنْ مَأْثَمِ الاعْتِرَاضِ وَالتَّحَيُّرِ، وَلَيْسَ يُمْكِنُكَ هَذَا إِلاَّ

(١) الارتياد: الطَّلَب.

(٢) العِنَان – بالكسر – : سَيْرُ اللِّجَامِ الَّذي تُمْسَكُ به الدَّابَّةُ، والجمع: أَعِنَّةٌ وَعُنُنٌ.

(٣) الرِّبْقَة – بالكسر والفتح – في الأصل: عُروة في حَبْلٍ، تُجْعَلُ في عُنُقِ البَهِيمَةِ أو يَدِهَا تُمْسِكُهَا؛ لئلاَّ تَشْرُدَ، والجَمْعُ رِبَقٌ، وأَرْبَاقٌ، ورِبَاقٌ.

(٤) سَرَّحك: أَطْلَقَكَ وَأَرْسَلَكَ وَفَرَّجَ عَنْكَ.

(٥) وَلِيُّ اليَتِيم: القَائِمُ بِأَمْرِه، والجَمْعُ أَوْلِياءُ.

(٦) الحَمِيمُ: القَرِيبُ، والجمع أَحِمَّاءُ.

بِشِدَّةِ بَحْثٍ وَنَظَرٍ فِي حُبِّكَ وَقَدْرِكَ؛ فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّكَ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ الحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالتَّدْبِيرِ الإِلَهِيِّ دُونَ الْيَتِيمِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ الْوَلِيِّ بِكَثِيرٍ، صَحَّ لَكَ التَّفْوِيضُ وَالتَّسْلِيمُ، وَاسْتَرَحْتَ مِنْ كَدِّ الاعْتِرَاضِ وَمَرَارَةِ التَّسَخُّطِ وَالتَّدْبِيرِ.

وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٦٥]. وَاعْلَمْ أَنَّهُ فِي أَسْرِ الأَقْدَارِ تُصَرَّفُ، فَإِنِ اعْتَرَضْتَ صِرْتَ فِي أَسْرِ الشَّيْطَانِ، فَلأَنْ تَكُونَ فِي أَسْرِ مَنْ لاَ يُتَّهَمُ عَلَيْكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي أَسْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا لاَ مَحِيصَ[١] لَكَ عَنْهُ، وَالآخَرُ أَنْتَ أَوْقَعْتَ نَفْسَكَ فِيهِ، وَلاَ أَقْبَحَ مِنْ عَاقِلٍ حَمَاهُ اللهُ وَحَجَرَ عَلَيْهِ حَمِيمُهُ نَظَرًا لَهُ، أَدْخَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ عَدُوًّا يُقَبِّحُ آثَارَ وَلِيِّهِ عِنْدَهُ، وَيُسْخِطُهُ عَلَيْهِ؛ لِيُفْسِدَ عَلَيْهِ مَعَ الْوَلِيِّ[٢].

ساعة إجابة

كُلُّ حَالٍ حَضَرَ اللهُ - تَعَالَىٰ - فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَغْتَنِمَ تِلْكَ اللَّحْظَةَ؛ فَإِنَّهَا سَاعَةُ إِجَابَةٍ. فَحُضُورُ ذِكْرِ اللهِ - تَعَالَىٰ - بِقَلْبِ الْعَبْدِ حُضُورٌ وَاسْتِحْضَارٌ، وَخَيْرُ أَوْقَاتِ الطَّلَبِ اسْتِحْضَارُ الْمُلُوكِ، وَمَنِ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ فَدَعَا، أَوِ اشْتَدَّ خَوْفُهُ فَبَكَىٰ، فَذَلِكَ الْوَقْتُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ سَاعَةُ إِجَابَةٍ وَسَاعَةُ صِدْقٍ فِي الطَّلَبِ وَمَا دَعَا صَادِقٌ إِلاَّ أُجِيبَ[٣].

---

(١) المحيص: المحيدُ والمهْرَبُ.

(٢) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٣) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢/ ٤٠٥).

الأدب عند تلاوة القرآن

مَا أَخْوَفَنِي أَنْ أُسَاكِنَ مَعْصِيَةً، فَتَكُونَ سَبَبًا فِي حُبُوطِ عَمَلِي، وَسُقُوطِ مَنْزِلَةٍ - إِنْ كَانَتْ عِنْدَ اللهِ - تَعَالَىٰ - بَعْدَمَا سَمِعْتُ قَوْلَه - تَعَالَىٰ - ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحُجُرات: ٢]!.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ فِي بَعْضِ التَّسَبُّبِ وَسُوءِ الأَدَبِ عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ مَا يُحْبِطُ الأَعْمَالَ، وَلاَ يَشْعُرُ الْعَامِلُ إِلاَّ أَنَّهُ عِصْيَانٌ يَنْتَهِي إِلَىٰ رُتْبَةِ الإِحْبَاطِ، هَذَا يَتْرُكُ الفَطِنَ خَائِفًا وَجِلاً مِنَ الإِقْدَامِ عَلَىٰ المَآثِمِ ثُمَّ خَوْفًا أَنْ يَكُونَ تَحْتَهَا مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا يُشَاكِلُ هَذِهِ.

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: أَلَيْسَ بَيْنَنَا كِتَابُ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ كَلامُهُ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَتَزَمَّلُ[١] وَيَتَدَثَّرُ[٢] لِنُزُولِه، وَالجِنُّ تُنْصِتُ لاسْتِمَاعِه، وَأَمَرَ بِالتَّأَدُّبِ بِقَوْلِه: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. فَعَمَّ كُلَّ قَارِئٍ، وَهَذَا مَوْجُودٌ بَيْنَنَا، فَلَمَّا أُمِرْنَا بِالإِنْصَاتِ إِلَىٰ كَلامِ مَخْلُوقٍ، كَانَ أَمْرُ النَّاسِ بِالإِنْصَاتِ إِلَىٰ كَلامِه أَوْلَىٰ، وَالْقَارِئُ يَقْرَأُ وَأَنْتُم مُعْرِضُونَ، وَرُبَّمَا أَصْغَيْتُمْ إِلَىٰ النَّغْمَةِ اسْتِثَارَةً لِلْهَوَىٰ، فَاللهَ اللهَ لاَ تَنْسَ الأَدَبَ فِيمَا وَجَبَ عَلَيْكَ فِيهِ حُسْنُ الأَدَبِ، مَا أَخْوَفَنِي أَنْ يَكُونَ الْمُصْحَفُ فِي بَيْتِكَ وَأَنْتَ مُرْتَكِبٌ لِنَوَاهِي الحَقِّ - سُبْحَانَهُ - فِيهِ فَتَدْخُلَ تَحْتَ

(١) يتزمَّل: يتلفَّف بالثَّوب.

(٢) يتدثَّر: يَتَلَفَّف بالدِّثارِ - بالكسر -، وهو ما يُلْبَسُ فَوْقَ الشِّعَارِ، والشِّعارِ - بالكسر - : الثَّوْبُ الَّذي يَلِي الجَسَدَ مُبَاشَرَةً.

قَوْله: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فَهِجْرَانُ الأَوَائِلِ كَلامَ الحَقِّ يُوجِبُ عَلَيْكَ مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ الإِبْعَادِ وَالمَقْتِ[١]، فَقَدْ نَبَّهَكَ عَلَىٰ التَّأَدُّبِ لَهُ مِنْ أَدَبِكَ لِلْوَالِدَيْنِ، وَالتَّأَدُّبُ لِلأَبَوَيْنِ يُوجِبُ التَّأَدُّبَ لله - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ لأَنَّهُ المُبْتَدِئُ بِالنِّعَمِ.

فَاللهَ اللهَ فِي إِهْمَالِ مَا وَجَبَ لله - تَعَالَىٰ - مِنْ الأَدَبِ عِنْدَ تِلاوَةِ الْقُرآنِ، وَالإِنْصَاتُ لِلْفَهْمِ وَالنَّهْضَةُ لِلْعَمَلِ بِالحُكْمِ إِيفَاءٌ لِلْحُقُوقِ إِذَا وَجَبَتْ، وَصَبْرًا عَلَىٰ أَثْقَالِ التَّكَالِيفِ إِذَا حَضَرَتْ، وَتَلَقِّيًا بِالتَّسْلِيمِ لِلْمَصَائِبِ إِذَا نَزَلَتْ، وَحِشْمَةً لِلْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - فِي كُلِّ أَخْذٍ وَتَرْكٍ؛ حَيْثُ نَبَّهَكَ عَلَىٰ سَبَبِ الحِشْمَةِ، فَقَالَ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ [الحديد: ٣]، ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣)﴾ [فصلت: ٥٣][٢].

حَالُ بَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ السَّمَاعِ

لَمَّا رَأَيْنَا الشَّرِيعَةَ تَنْهَىٰ عَنْ تَحْرِيكَاتِ الطِّبَاعِ بِالرُّعُونَاتِ[٣]، وَكَسَرَتْ الطُّبُولَ وَالمَعَازِفَ، وَنَهَتْ عَنْ النَّدْبِ[٤] وَالنِّيَاحَةِ وَالمَدْحِ وَجَرِّ الخُيَلاءِ فَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّرْعَ يُرِيدُ الْوَقَارَ دُونَ الخَلاعَةِ، فَمَا بَالُ التَّغْيِيرِ وَالْوَجْدِ[٥]، وَتَخْرِيقِ الثِّيَابِ

(١) المَقْت: البُغْض الشَّديد، وبابُهُ نَصَرَ.

(٢) «الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ٤٤٥ - ٤٤٦).

(٣) الرُّعُونَة: الحُمْقُ والاسْتِرْخاءُ.

(٤) النَّدْبُ: البُكَاءُ عَلَىٰ المَيِّت وتَعْدَادُ مَحَاسنه، وبَابُهُ نَصَرَ، والاسمُ النُّدْبَة - بالضَّمِّ - .

(٥) الوَجْد: الحُزْن، وقَدْ وَجِدَ بِهِ - بالكسر - وَجْدًا - بالفتح -: حَزِنَ.

وَالصَّعْقِ[١]، وَالتَّمَاوُتِ[٢] مِنْ هَؤُلاءِ المُتَصَوِّفَةِ؟!. وَكُلُّ مُهَيِّجٍ مِنْ هَؤُلاءِ الْوُعَّاظِ الْمُنْشِدِينَ مِنْ غَزَلِ الأَشْعَارِ، وَذِكْرِ الْعُشَّاقِ - فَهُمْ كَالْمُغَنِّي وَالنَّائِحِ، فَيَجِبُ تَعْزِيرُهُمْ[٣]؛ لأَنَّهُمْ يُهَيِّجُونَ الطِّبَاعَ، وَالْعَقْلُ سُلْطَانُ هَذِهِ الطِّبَاعِ فَإِذَا هَيَّجَهَا صَارَ إِهَاجَةَ الرَّعَايَا عَلَى السُّلْطَانِ أَمَا سَمِعْتَ: «يا أَنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ[٤] سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ[٥]» ؟![٦].

وَمَا الْعِلْمُ إِلاَّ الحِكْمَةُ المُتَلَقَّاةُ مَعَ السُّكُونِ وَالدَّعَةِ وَاعْتِدَالِ الأَمْزِجَةِ، أَمَا رَأَيْتَهُ عَزَلَ الْقَاضِيَ حِينَ غَضَبِهِ؟!، وَكَذَلِكَ يَعْزِلُهُ حَالَ طَرَبِهِ، أَمَا سَمِعْتَ: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. فَأَيْنَ الطَّرَبُ مِنْ الأَدَبِ؟! وَاللهِ، مَا رَقَصَ - قَطُّ - عَاقِلٌ، وَلاَ تَعَرَّضَ لِلطَّرَبِ فَاضِلٌ، وَلاَ صَغَىٰ إِلَىٰ تَلْحِينِ الشِّعْرِ إِلاَّ بَطِرٌ[٧]، أَلَيْسَ بَيْنَنَا الْقُرْآنُ؟!، وَقَدْ قَالَ: طَلَبْنَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ فَأَبَىٰ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بِدَايَةَ الطَّلَبِ صَعْبَةٌ، فَهُوَ كَلُعْبَةِ المَفْطُومِ، ثُمَّ يَسْتَغْنِي عَنْهَا بِقُوَّةِ النَّهِمِ، فَيَدَعُ الثَّدْيَ تَقَذُّرًا وَاسْتِقْذَارًا[٨].

---

(١) الصَّعَق - مُحَرَّكَةً -: شِدَّةُ الصَّوْت.

(٢) تَمَاوَتَ الرَّجُلُ: أَظْهَرَ مِنْ نَفْسِه التَّخَافُتَ والتَّضَاعُفَ مِنَ العِبَادَةِ والزُّهْدِ والصَّوْمِ.

(٣) التَّعْزِير: التَّأديب، وهو ضَرْبٌ دُوَ الحَدِّ.

(٤) رُوَيْدَكَ: اسم فعل أمرٍ بِمَعْنَىٰ أَرْوِدْ (أي: أَمْهِلْ)، والكافُ المُتَّصِلَةُ بِهِ حَرْفُ خِطَابٍ، وَلَيْسَتِ اسمًا، وفَتْحةُ دَالِه بِنَائِيَّةٌ.

(٥) القَوَارِيرُ: جَمْعُ قَارُورَة، وهي الزُّجاجةُ، سُمِّيَتْ بذلكَ لاستقرارِ الشَّرابِ فيها، والْقَوَارِيرُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ النِّسَاءِ اللاَّتِي كُنَّ عَلَىٰ الإِبِلِ الَّتِي يَسُوقُها ويَحْدُو بها أَنْجَشَةُ - وكَانَ غُلامًا حَبَشِيًّا حَسَنَ الصَّوْتِ بالحُدَاءِ -، شَبَّهَ النِّسَاءَ - لِضَعْفِ عَزَائِمِهِنَّ وسُرْعَةِ تَأثِيرِ الصَّوْتِ فيهنَّ - بالقَوَارِيرِ في إِسْرَاعِ الكَسْرِ إِليْها، فخَافَ عَلَيْهِنَّ الفِتْنَةَ مِنْ سَمَاعِهِنَّ النَّشِيدَ الَّذي يَحْدُو بِهِ؛ فأَمَرَهُ بالكَفِّ.

(٦) أخرجه البُخَارِيُّ (٦١٤٩)، ومسلمٌ (٢٣٢٣).

(٧) البَطِرُ: الشَّديد المَرَحِ الَّذي يَكْفُرُ النِّعْمَةَ ولا يَشْكُرُها، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٨) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (٢ / ٤٥٠).

جُهَّالُ الأَطِبَّاءِ

جُهَّالُ الأَطِبَّاءِ هُمْ الْوَبَاءُ فِي الْعَالِمِ، وَتَسْلِيمُ المَرْضَىٰ إِلَىٰ الطَّبِيعَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ تَسْلِيمِهِمْ إِلَىٰ جُهَّالِ الطِّبِّ[١].

العِشْقُ: أَسْبَابُهُ وَعِلاجُهُ

لَيْسَ الْعِشْقُ مِنْ أَدْوَاءِ الحُكَمَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَمْرَاضِ الخُلَفَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوا دَأْبَهُمْ وَلَهْجَتَهُمْ مُتَابَعَةَ النَّفْسِ وَإِرْخَاءً عَنْ الشَّهْوَةِ، وَإِفْرَاطَ النَّظَرِ فِي المُسْتَحْسَنَاتِ مِنْ الصُّوَرِ، فَهُنَالِكَ تَتَقَيَّدُ النَّفْسُ بِبَعْضِ الصُّوَرِ فَتَأْنَسُ، ثُمَّ تَأْلَفُ، ثُمَّ تَتُوقُ، ثُمَّ تَتَشَوَّقُ، ثُمَّ تَلهَجُ[٢]، فَيُقَالُ: عَشِقَ، وَالحَكِيمُ مَنْ اسْتَطَالَ رَأْيُهُ عَلَىٰ هَوَاهُ، وَتَسَلَّطَتْ حِكْمَتُهُ - أَوْ تَقْوَاهُ - عَلَىٰ شَهْوَتِهِ، فَرُعُونَاتُ نَفْسِهِ مُقَيَّدَةٌ أَبَدًا، كَصَبِيٍّ بَيْنَ يَدَيْ مُعَلِّمِهِ، أَوْ عَبْدٍ بِمَرْأَىٰ سَيِّدِهِ، وَمَا كَانَ الْعِشْقُ إِلاَّ لأَرْعَنَ بَطَّالٍ[٣]، وَقَلَّ أَنْ يَكُونَ فِي مَشْغُولٍ وَلَوْ بِصِنَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ، فَكَيْفَ بِعُلُومٍ شَرْعِيَّةٍ أَوْ حُكْمِيَّةٍ؟!؛ فَإِنَّهَا صَارِفَةٌ عَنْ ذَلِكَ[٤].

---

(١) «الآدابُ الشَّرْعيَّة» (٣/١٠٦).

(٢) لَهِجَ بِهِ - مِنْ بَابِ فَرِحَ - : أُولِعَ وَأُغْرِيَ بِهِ، فثَابَرَ عَلَيْهِ.

(٣) البطَّال: المُتَعطِّل الَّذي لا عَمَلَ لَهُ.

(٤) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٣/٢٤٩ - ٢٥٠).

الخَيرُ عادةٌ والشَّرُّ أصالةٌ

الخَيْرُ بالتَّعَوُّدِ، وَالشَّرُّ طَبَعِيٌّ، وَانْظُرْ إِلَىٰ وَضْعِ الشَّرْعِ: «مُرُوهُمْ بالصَّلاةِ لسَبْعٍ»، فَلَمَّا جَاءَ إِلَىٰ الشَّرِّ قَالَ: «وفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ» (١) لعلْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ أَكْثَر فِي المُجْتَمِعِينَ(٢).

النَّوحُ علَى الدُّنْيَا

مِنْ عَجِيبِ مَا نَقَدْتُ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ كَثْرَةُ مَا نَاحُوا عَلَىٰ خَرَابِ الدِّيَارِ، وَمَوْتِ الأَقَارِبِ وَالأَسْلافِ، وَالتَّحَسُّرِ عَلَىٰ الأَرْزَاقِ بِذَمِّ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، وَذِكْرِ نَكَدِ الْعَيْشِ فِيهِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ انْهِدَامِ الإِسْلامِ، وَشَعَثِ(٣) الأَدْيَانِ، وَمَوْتِ السُّنَنِ، وَظُهُورِ الْبِدَعِ، وَارْتِكَابِ المَعَاصِي، وَتَقَضٍّ فِي الْفَارِغِ الَّذِي لاَ يُجْدِي(٤)، وَالْقَبِيحِ الَّذِي يُوبِقُ(٥) وَيُؤْذِي، فَلا أَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ نَاحَ عَلَىٰ دِينِهِ، وَلاَ بَكَىٰ عَلَىٰ فَارِطِ عُمْرِهِ، وَلاَ تَأَسَّىٰ(٦) عَلَىٰ فَائِتِ دَهْرِهِ، وَمَا أَرَىٰ لِذَلِكَ سَبَبًا إِلاَّ قِلَّةَ مُبَالاتِهِمْ

---

(١) أخرجه أبو داوُدَ (٤٩٥)، وقالَ الأَلْبَانيُّ في «صحيح أبي داود» (٤٦٦): حسن صحيح.

(٢) «الآداب الشَّرعيَّة» (٣/ ٢٥٤).

(٣) الشَّعَثُ في الأصل: تَلَبُّدُ شَعرِ الرَّأسِ واغبِرارُهُ لقلَّةِ تَعهُّدِهِ بالدُّهْنِ، فاسْتعارَهُ للأديان، وبابُهُ فَرِحَ.

(٤) لا يُجْدِي: لا يُغْنِي ولا يَنْفَع.

(٥) يُوبِق: يُهْلِكُ.

(٦) تَأَسَّىٰ: تَحزَّن وتَوَجَّعَ.

بالأَدْيَانِ، وَعظَمَ الدُّنْيَا فِي عُيُونِهِمْ، ضِدَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، يَرْضَوْنَ بِالبَلاغِ[1]، وَيَنُوحُونَ عَلَىٰ الدِّينِ[2].

في تأخير الإجابة حكمة ومصلحة

تَسْتَبْطِئُ الإِجَابَةَ مِنْ اللهِ - تَعَالَىٰ - لأَدْعِيَتِك فِي أَغْرَاضِك الَّتِي يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي بَاطِنِهَا المَفَاسِدُ فِي دِينِك وَدُنْيَاك، وَتَتَسَخَّطُ بِإِبْطَاءِ مُرَادِك مَعَ الْقَطْعِ عَلَىٰ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لا يَمْنَعُك شُحًّا وَلاَ بُخْلاً وَلاَ نِسْيَانًا، وَقَدْ شَهِدَ بِصِحَّةِ ذَلِكَ مُرَاعَاتُهُ لَك، وَلاَ لِسَانَ يَنْطِقُ بِدُعَاءٍ، وَلاَ أَرْكَانَ لِعَبْدِهِ، وَلاَ قُوَّةً تَتَحَرَّك بِهَا فِي طَاعَةٍ مِنْ طَاعَاتِهِ، فَكَيْفَ وَجُمْلَتُك[3] وَأَبْعَاضُك وَقْفٌ عَلَىٰ خِدْمَتِهِ، وَلِسَانُك رَطْبٌ بِأَذْكَارِهِ؟ لَكِنْ إِنَّمَا أُخِّرَ رَحْمَةً لَك وَحِكْمَةً وَمَصْلَحَةً، وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْك بِذَلِكَ تَقْدِمَةً، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ - : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَأَنْتَ الْعَبْدُ الْمُحْتَاجُ تَتَخَلَّفُ عَنْ أَكْثَرِ أَوَامِرِهِ، وَلاَ تَسْتَبْطِئُ نَفْسَك فِي أَدَاءِ حُقُوقِهِ. هَلْ هَذَا إِنْصَافٌ أَنْ يَكُونَ مِثْلُك يُبْطِئُ عَنْ الحُقُوقِ، وَلاَ تُنْكِرُ ذَلِكَ مِنْ

(١) البَلاغ - بالفتح - : الكفاية.

(٢) «الآداب الشَّرعيَّة» (٣/ ٣٨٩).

(٣) الجُمْلَة - بالضَّمِّ - : جماعةُ الشَّيْءِ.

نَفْسك، ثُمَّ تَسْتَبْطِئُ الحَكِيمَ الأَزَلِيَّ[١] الخَالِقَ فِي بَابِ الحُظُوظِ، الَّتِي لاَ تَدْرِي كَيْفَ حَالُك فِيهَا: هَلْ طَلَبُهَا عَطَبٌ[٢] وَهَلاكٌ، أَوْ غِبْطَةٌ[٣] وَصَلاحٌ؟![٤].

تَمَسُّكُ النَّاسِ بِالخُرَافَاتِ

لَوْ تَمَسَّكَ النَّاسُ بِالشَّرْعِيَّاتِ تَمَسُّكَهُمْ بِالخُرَافَاتِ، لاسْتَقَامَتْ أُمُورُهُمْ؛ لأَنَّهُمْ لاَ يُقَدِّمُونَ إِدْخَالَ مُسَافِرٍ عَلَىٰ مَرِيضٍ، وَلاَ يُنْقَبُ الرَّغِيفُ مِنْ غَيْرِ قَطْعِ حَرْفِهِ[٥]، وَلاَ يَكُبُّ الرَّغِيفَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، وَلاَ يُتَزَوَّجُ فِي صَفَرٍ، وَلاَ يَتْرُكُ يَدَيْهِ مُشَبَّكَةً فِي رُكْنَيْ الْبَابِ وَلاَ يَخِيطُ قَمِيصَهُ عَلَيْهِ إِلاَّ وَيَضَعُ فِيهِ لِيطَةً، وَلَعَلَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَوْ عُوتِبَ عَلَىٰ تَرْكِ الجُمُعَةِ أَوْ الجَمَاعَاتِ أَوْ لُبْسِ الحَرِيرِ لأَهْوَنُ بِالعُتْبَةِ. فَهٰذَا قَدْرُ الإِسْلامِ عِنْدَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِهِ وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ: لاَ يَحِلُّ طَرْحُ الرَّغِيفِ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثِقَةً بِمَا يَسْمَعُ مِنَ النِّسَاءِ الْبُلْهِ[٦] وَالسَّفْسَافِ[٧][٨].

---

(١) الأَزَلِيّ – بالتَّحْرِيك –: القَدِيم الَّذِي لَيس قَبْلَهُ شَيْءٌ.

(٢) العَطَبُ: الهَلاك، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٣) الغِبْطَةُ – بالكَسْر –: المَسَرَّةُ.

(٤) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (٢ / ٤٠٣).

(٥) حَرْفُ كُلِّ شَيْءٍ – بالفَتْح –: طَرَفُهُ.

(٦) البُلْه: جَمْعُ بَلْهَاءَ، وهي الحَمْقَاءُ لا تَمييزَ لهَا.

(٧) السَّفْسَاف – بالفتح –: الحقير والرَّديءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأَصْلُهُ: ما يَطِيرُ مِنْ غبارِ الدَّقيقِ إذا نُخِلَ، والتُّراب إذا أُثير.

(٨) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (٣ / ٣٨٤).

الانبساط والمداعبة مع الزوجة والولد

مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ فِي هَؤُلاءِ المُتَشَدِّقِينَ[١] فِي شَرِيعَةٍ بِمَا لاَ يَقْتَضِيه شَرْعٌ وَلاَ عَقْلٌ؟!، يُقَبِّحُونَ أَكْثَرَ المُبَاحَاتِ، وَيُبَجِّلُونَ[٢] تَارِكَهَا حَتَّىٰ تَارِكَ التَّأَهُّلِ[٣] وَالنِّكَاحِ، وَالعِبْرَةُ فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ إِعْطَاءُ الْعَقْلِ حَقَّهُ مِنَ التَّدَبُّرِ، وَالتَّفَكُّرِ، وَالاسْتِدْلاَلِ، وَالنَّظَرِ، وَالْوَقَارِ، وَالتَّمَسُّكِ، وَبِالإِعْدَادِ لِلعَوَاقِبِ[٤].

عاقبة البخل والشح[٥]

الْبُخْلُ يُورِثُ التَّمَسُّكَ بِالمَوْجُودِ، وَالمَنْعَ مِنْ إِخْرَاجِهِ لأَلَمٍ يَجِدُهُ عِنْدَ تَصَوُّرِ قِلَّةِ مَا حَصَلَ وَعَدَمِ الظَّفَرِ بِخَلَفِهِ[٦]، وَالشُّحُّ يُفَوِّتُ النَّفْسَ كُلَّ لَذَّةٍ، وَيُجَرِّعُهَا كُلَّ غُصَّةٍ[٧].

---

(١) المُتَشَدِّق: المُتَوَسِّع في الكلامِ مِنْ غَيْرِ احْتياطٍ واحْتِرازٍ.
(٢) يُبَجِّلُونَ: يُعَظِّمون.
(٣) التَّأَهُّل: اتِّخاذ الأَهْلِ.
(٤) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٣/٣٨٨).
(٥) الشُّحّ – بالضَّمِّ – : حِرْص النَّفْسِ علىٰ مَا مَلَكَتْ وَبُخْلها به.
(٦) الخَلَف – بالتَّحْرِيك – : العِوَض والبَدَل.
(٧) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٣/٤٧٣).

حفظُ مودَّةِ الإخْوانِ والجيرانِ

تَمَامُ المُرُوءَةِ أَنْ تُرَاعِيَ وَرَثَةَ مَنْ كُنْتَ تُرَاعِيهِ، وَتَخْلُفُهُ بِزِيَادَةٍ عَلَىٰ مَا كُنْت تُرَاعِيهِمْ حَالَ حَيَاتِه؛ لِتَكُونَ الزِّيَادَةُ بِإِزَاءِ إِرْعَائِه، وَلاَ تُوهِمْهُمْ أَنَّ المَنْزِلَةَ سَقَطَتْ بِمَوْتِ كَاسِبِهِمْ، وَقَوِّ الإِكْرَامَ عَلَىٰ الأَيْتَامِ؛ لِتَشُوبَ[١] مَرَارَةَ يُتْمِهِمْ حَلاوَةُ التَّحَنُّنِ.

كَانَ السَّلَفُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - يُذْهِبُونَ حُزْنَ الأَيْتَامِ وَالأَرَامِلِ، وَيُزِيلُونَ ذُلَّ اليَتِيمِ بِأَنْوَاعِ البِرِّ حَتَّىٰ صَارُوا كَالآبَاءِ، وَالأُمَّهَاتِ لِلْيَتِيمِ، لاَ يَتْرُكُونَهُ يُضَامُ[٢]، وَيَتَنَاضَلُونَ عَنْهُ[٣].

وَفِي الجُمْلَةِ: الْكِرَامُ لاَ يَبِينُ بَيْنَهُمْ يُتْمُ أَوْلاَدِ الجِيرَانِ وَلاَ النَّازِلُ مِنْ الْقَاطِنِينَ[٤][٥].

الرَّاحَةُ مِنْ تَعَبِ الاعْتِرَاضِ

جَرَىٰ فِي مَجْلِسٍ مُذَاكَرَةٌ فَقَالَ قَائِلٌ: إِنِّي لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي ضِيقًا - وَإِنْ قَصُرَتْ يَدَيَّ - بَلْ طِيبَ النَّفْسِ، كَأَنِّي صَاحِبُ ذَخِيرَةٍ، فَقَالَ رَئِيسٌ فَاضِلٌ - قَدْ

(١) لتشوب: لتُخَالطَ، وبابه قَالَ.
(٢) يُضام: يُظْلَم ويُنْتَقَصُ حَقُّهُ، وقَدْ ضَامَهُ مِنْ بَابِ بَاعَ.
(٣) يتنَاضلون عنهُ: يُدافعون ويُحَامون.
(٤) القاطنين: المُقيمين.
(٥) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٣/ ٤٩٥ - ٤٩٦).

حَلَبَ الدَّهْرَ وَحَنَّكَتْهُ التَّجَارِبُ(١) -: «هَذِهِ صِفَةٌ إِمَّا رَجُلٍ قَدْ أَعَدَّتْ لَهُ الأَيَّامُ سَعَادَةً، شَعَرَتْ نَفْسُهُ بِهَا؛ لأَنَّ فِي النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ مَا يُشْعِرُ بِالأَمْرِ قَبْلَ كَوْنِهِ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ ثِقَةً بِاللهِ لِكُلِّ حَادِثٍ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ، لاَ يَضَعُ الشَّيْءَ إِلاَّ فِي مَوْضِعِهِ، فَيَسْتَرِيحُ مِنْ تَعَبِ الاِعْتِرَاضِ وَعَذَابِ التَّمَنِّي»(٢).

في إنْكَارِ مَا يُعْمَلُ فِي المَسَاجِدِ والمَقَابِرِ

أَنَا أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - مِنْ جُمُوعِ أَهْلِ وَقْتِنَا، فِي المَسَاجِدِ، وَالمَشَاهِدِ(٣) لَيَالِي يُسَمُّونَهَا إِحْيَاءً. لَعَمْرِي إِنَّهَا لإِحْيَاءِ أَهْوَائِهِمْ، وَإِيقَاظِ شَهَوَاتِهِمْ، جُمُوعُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، مَخَارِجُ الأَمْوَالِ فِيهَا مِنْ أَفْسَدِ المَقَاصِدِ وَهُوَ الرِّيَاءُ، وَالسُّمْعَةُ وَمَا فِي خِلاَلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اللَّعِبِ، وَالْكَذِبِ، وَالْغَفْلَةِ، مَا كَانَ أَحْوَجَ الجَوَامِعِ أَنْ تَكُونَ مُظْلِمَةً مِنْ سُرُجِهِمْ(٤)، مُنَزَّهَةً عَنْ مَعَاصِيهِمْ وَفِسْقِهِمْ!، مُرْدَانٌ(٥) وَنِسْوَةٌ، وَفُسَّاقٌ، الرَّجُلُ - عِنْدِي - مَنْ وَزَنَ فِي نَفْسِهِ ثَمَنَ الشَّمْعَةِ، فَأَخْرَجَ بِهِ دُهْنًا وَحَطَبًا إِلَىٰ بُيُوتِ الْفُقَرَاءِ، وَوَقَفَ فِي زَاوِيَةِ بَيْتٍ بَعْدَ إِرْضَاءِ عَائِلَتِهِ بِالحُقُوقِ،

---

(١) حَنَّكَتْهُ التَّجَارِبُ: أَحْكَمَتْهُ وَرَاضَتْهُ وَهَذَّبَتْهُ.

(٢) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (٤ / ٢٠).

(٣) المشاهد: محاضر النَّاس، جمْعُ مَشْهَدٍ.

(٤) السُّرُج: جَمْعُ السِّرَاج - بالكسر -، وهو المِصْبَاحُ.

(٥) مُرْدَانٌ - بالضَّمِّ -: جمعُ أَمْرَدَ، وهو الشَّابُّ الَّذِي بَلَغَ خُرُوجَ لِحْيَتِهِ، وَطَلَعَ شَارِبُهُ، وَلَمْ تَبْدُ لِحْيَتُهُ، وَيُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَىٰ مُرْدٍ.

فَكُتِبَ فِي الْمُتَهَجِّدِينَ، صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ بِحُزْنٍ، وَدَعَا لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَكَّرَ إِلَىٰ مَعَاشِهِ لاَ إِلَىٰ الْمَقَابِرِ؛ فَتَرْكُ الْمَقَابِرِ فِي ذَلِكَ عِبَادَةٌ .

يَا هَذَا، انْظُرْ إِلَىٰ خُرُوجِكَ إِلَىٰ الْمَقَابِرِ كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا وُضِعَتْ لَهُ؟! . قَالَ: «تُذَكِّرُكُمْ الآخِرَةَ» (١)، فَأَشْغَلَكَ بِتَلَمُّحِ الْوُجُوهِ النَّاضِرَةِ فِي تِلْكَ الْجُمُوعِ لِزَرْعِ اللَّذَّةِ فِي قَلْبِكَ، وَالشَّهْوَةِ فِي نَفْسِكَ مِنْ مُطَالَعَةِ الْعِظَامِ النَّاخِرَةِ - يُسْتَدْعَىٰ بِهَا ذِكْرُ الآخِرَةِ، كَلاَّ، مَا خَرَجْتَ إِلاَّ مُتَنَزِّهًا، وَلاَ عُدْتَ إِلاَّ مُتَأَثِّمًا، وَلاَ فَرْقَ -عِنْدَكَ- بَيْنَ الْقُبُورِ، وَالْبَسَاتِينِ مَعَ الْفُرْجَةِ لاَ أَقَلَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَعَاصِي بَيْنَ الْجُدْرَانِ، فَأَمَّا أَنْ تَجْعَلَ الْمَقَابِرَ، وَالْمَشَاهِدُ عِلَّةً فِي الاشْتِهَارِ فَلاَ، فَعَلَىٰ مَنْ فَطِنَ لِقَوْلِي فِي رَجَبٍ وَأَمْثَالِهِ: ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦].

عَزَّ عَلَيَّ بِقَوْمٍ فَاتَتْهُمْ أَيَّامُ الْمَوَاسِمِ، الَّتِي يَحْظَىٰ فِيهَا قَوْمٌ بِأَنْوَاعِ الأَرْبَاحِ، وَلَيْتَهُمْ خَرَجُوا مِنْهَا بِالْبَطَالَةِ رَأْسًا بِرَأْسٍ، مَا قَنَعُوا حَتَّىٰ جَعَلُوهَا مِنَ السَّنَةِ إِلَىٰ السَّنَةِ خَلْسًا لاِسْتِيفَاءِ اللَّذَّاتِ، وَاسْتِلاَمِ الشَّهَوَاتِ الْمَحْظُورَاتِ، مَا بَالُ الْوُجُوهِ الْمَصُونَةِ فِي جُمَادَىٰ هُتِكَتْ فِي رَجَبٍ بِحُجَّةِ الزِّيَارَاتِ؟! ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [نوح: ١٣](٢).

---

(١) أخرجه ابْنُ ماجَهْ (١٥٦٩)، وأبُو داودَ (٣٢٣٤)، وانظر صحيح ابْنِ حبَّانَ (٣١٦٩)، وصحَّحَهُ الأَلْبَانيُّ في «صحيح أبي داود» (٢٧٧١).

(٢) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٤/ ٣٥ - ٣٦).

أَكْدَارُ الْمُخَالَطَةِ

أَتَرَىٰ بِمَاذَا تَتَحَدَّثُ عَنْكَ سَوَارِي [١] الْمَسْجِدِ فِي الظُّلَمِ، وَأَفْنِيَةُ الْقُبُورِ [٢]، وَالْقِبَابِ [٣]، بِالْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِ الْوَعِيدِ، وَالتَّذْكِرَةِ لِلآخِرَةِ؟، بِنَظَرِ الْعِبْرَةِ إِذَا تَحَدَّثَتْ عَنْ أَقْوَامٍ خَتَمُوا فِي بُيُوتِهِمْ الْخَتْمَاتِ، وَصَانُوا الأَهْلَ اتِّبَاعًا لِلنَّبِيِّ - ﷺ -، حَيْثُ انْسَلَّ [٤] مِنْ فِرَاشِ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، لاَ جُمُوعَ وَلاَ شُمُوعَ.

طُوبَىٰ [٥] لِمَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ، فَانْزَوَىٰ [٦] إِلَىٰ زَاوِيَةِ بَيْتِهِ، فَانْتَصَبَ لِقِرَاءَةِ جُزْءٍ فِي رَكْعَتَيْنِ بِتَدَبُّرٍ وَتَفَكُّرٍ، فَيَا لَهَا مِنْ لَحْظَةٍ، مَا أَصْفَاهَا مِنْ أَكْدَارِ الْمُخَالَطَاتِ وَأَقْذَارِ الرِّيَاءِ!.

غَداً يَرَىٰ أَهْلُ الْجُمُوعِ أَنَّ الْمَسَاجِدَ تَلْعَنُهُمْ، وَالْمَشَاهِدَ، وَالْمَقَابِرَ تَسْتَغِيثُ مِنْهُمْ.

يُبَكِّرُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: أَنَا صَائِمٌ، مَتَىٰ أَفْلَحَ عُرْسُكَ حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ صِحَّةٌ؟!.

قُلْ لِي - يَا مَنْ أَحْيَا فِي الْجَامِعِ - بِأَيِّ قَلْبٍ رَجَعْتَ؟!.

---

(١) السَّوَارِي: جَمْعُ سَارِيَةٍ، وهي الأُسْطُوانَةُ.
(٢) أفنية القبور: ما امتدَّ مِنْ جَوَانبها، جَمعُ فناء -بالكسر-، ويُجْمَعُ -أيضًا- عَلَىٰ فُنِيٍّ - بزنة فُعُولٍ-.
(٣) القباب: جمعُ قُبَّة - بالضَّمِّ -، وهي بِنَاءٌ مُدَوَّرٌ مَعْرُوفٌ.
(٤) انْسَلَّ: انطلقَ في استخْفَاء.
(٥) طُوبَىٰ لَهُ: العَيْش الطَّيِّب لَهُ. وقيل: حُسْنَىٰ لَهُ. وقيل: خَيْرٌ لَهُ.
(٦) انْزَوَىٰ: تَنَحَّىٰ.

مَاتَ وَاللهِ قَلْبُك، وَعَابَتْ نَفْسُك، مَا أَخْوَفَنِي عَلَىٰ مَنْ فَعَلَ هَذَا الْفِعْلَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي أَنْ يَخَافَ فِي مَوَاطِنِ الأَمْنِ، وَيَظْمَأَ فِي مَقَامَاتِ الرِّيِّ![1].

مَدْحُ النَّفْسِ بِالحَقِّ لِلمَصْلَحَةِ

سُؤَالٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النَّجْم: ٣٢].

كَيْفَ سَاغَ لِعُمَرَ أَنْ يُزَكِّيَ نَفْسَهُ حِينَ سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ صَيْدٍ قَتَلَهُ، فَقَالَ: اصْبِرْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ حَكَمٌ آخَرُ، فَيَحْكُمَ لِنَفْسِهِ إِنَّهُ أَحَدُ الْعَدْلَيْنِ؟..

قِيلَ: إِنَّمَا نُهِيَ عَنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِالمَدْحِ وَالإِطْرَاءِ المُورِثِ عُجْبًا[2] وَتِيهًا[3] وَمَرَحًا[4]، وَمَا قَصَدَ عُمَرُ - رضي الله عنه - ذَلِكَ إِنَّمَا قَصَدَ فَصْلَ حُكْمٍ، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ ذَلِكَ فَصَارَ كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ - عَنِ المَلائِكَةِ - عَلَيْهِمُ السَّلامُ -: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصَّافَّات: ١٦٥، ١٦٦].

فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ لا يَتَنَاوَلُ إِلاَّ مَنْ أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ الافْتِخَارِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ»[5] فَنَفَىٰ الْفَخْرَ الَّذِي هُوَ الإِعْجَابُ[6].

---

(١) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٤/٣٦ - ٣٧).

(٢) العُجْب - بالضَّمِّ - : الزَّهْوُ والْكِبْرُ.

(٣) التِّيهُ - بالكسر - : الكِبْرُ.

(٤) المَرَحُ - بالتَّحْرِيك - : شِدَّةُ الفَرَحِ.

(٥) صَحيحٌ، أخرجه أحمدُ (٣/٢)، والتِّرمذيُّ (٢/٢٨٢)، وابْنُ مَاجَهْ (٤٣٠٨) عَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ، ولَهُ شَاهِدٌ من حديث أبي هُرَيْرَةَ بِلَفْظِ: «أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ». أَخْرَجَهُ مُسْلم (٢٢٧٨)، وغيرُهُ.

(٦) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٤/١١٦ - ١١٧).

لا قرابة لمن لا تؤمن مكايده

أَكْثَرُ مَنْ يُخَالِطُ السُّلْطَانَ لِشِدَّةِ حِرْصِهِمْ عَلَىٰ تَنْفِيقِ نُفُوسِهِمْ عَلَيْهِ بِإِظْهَارِ الْفَضَائِلِ، وَتَدْقِيقِ الْمَذَاهِبِ، فِي دَرَكِ(١) الْمَبَاغِي(٢) وَالْمَطَالِبِ يَبْلُغُونَ مَبْلَغًا يَغْفُلُونَ بِهِ عَنِ الصَّوَابِ؛ لأَنَّ السَّلاطِينَ دَأْبُهُمُ الاسْتِشْعَارُ، وَالْخَوْفُ مِنْ دَوَاهِي الأَعْدَاءِ، فَإِذَا أَحَسُّوا مِنْ إِنْسَانٍ تَنَغُّرًا وَلَمْحًا(٣)، تَحَرَّزُوا مِنْهُ بِعَاجِلِ أَحْوَالِهِمْ، وَالتَّحَرُّزُ نَوْعُ إِقْصَاءٍ(٤)؛ فَإِنَّهُ لا قُرْبَةَ لِمَنْ لا تُؤْمَنُ مَكَايِدُهُ وَعَنْهُمْ يَفْتَعِلُونَ الدَّوَاهِيَ لِمَا عَسَاهُ يُلِمُّ(٥) بِجَانِبِهِمْ؛ فَإِنَّ التَّغَافُلَ أَصْلَحُ لِمُخَالَطَتِهِمْ مِنَ التَّجَالُدِ، وَإِظْهَارِ اللَّمْحِ، فَإِنَّ لِلسُّلْطَانِ كَنْزًا لا يَجِبُ ظُهُورُهُ إِلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ وَيَخَافُ مِنْ تَكَشُّفِ أَحْوَالِهِ الدُّخُولَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ الْخِبْرَةِ بِهِ، وَالأَوْلَىٰ فِي الْحِكْمَةِ أَلاَّ يَنْكَشِفَ الإِنْسَانُ بِخُلُقٍ فِي مَحْبُوبِهِ وَلا مَكْرُوهِهِ؛ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنْهُ(٦).

---

(١) الدَّرَكُ – بالتَّحْريك –: الإدْراكُ واللِّحَاقُ.

(٢) المباغي: المطالب، جمعُ المَبْغَىٰ.

(٣) التَّنَغُّرُ: الغَيْظُ، واللَّمْحُ: الإبْصار بنَظَر خَفيف، وبابه قَطَعَ، والمراد به: إذا شَعَرَ السُّلْطَانُ بنوعِ نُفُورٍ وكَراهيَةٍ، أو قُدْرَةٍ عَلَىٰ لمحِ غَيْبُوبَةٍ – بَدَأَ يَحْتَاطُ مِنْ جَليسِهِ، وَهَذَا أَوَّلُ الإبْعَادِ، والسَّلامَةُ في التَّغَافُلِ.

(٤) الإقْصاء: الإبعاد.

(٥) يُلِمُّ: يَنْزِلُ.

(٦) «الآداب الشَّرعيَّة» (٤ / ١٣٧).

عُلَمَاءُ الْكَلامِ يُشَكِّكُونَ فِي العَقَائِدِ

يَا عُلَمَاءُ، مَا نَقْنَعُ مِنْكُمْ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ زِيٍّ تَصَارِيفِكُمْ[١]، فَإِنَّ طَبِيبًا بِهِ مِثْلُ مَرَضِي، فَضَيَّقَ عَلَيَّ الأَغْذِيَةَ وَلاَ يَحْتَمِي - مَشْكُوكٌ فِي صِدْقِهِ عِنْدِي، فَالحَظُوا حَالَ مَنْ أَنْتُمْ وَرَثَتُهُ، كَيْفَ غُفِرَ لَهُ، ثُمَّ قَامَ حَتَّىٰ تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ؟!.

يَا سِبَاعُ، يَا قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، لاَ تُرَوْنَ إِلاَّ عَلَىٰ مَطَارِحِ الجِيَفِ!، نَبِيُّكُمْ - ﷺ - قَنَعَ مِنَ المَرْأَةِ بِإِشَارَتِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَأَنْتُمْ تُشَكِّكُونَ النَّاسَ فِي الْعَقَائِدِ!، انْفَتَحَ بِكَلامِكُمْ الْبَثْقُ[٢] الْعَظِيمُ، وَهُوَ كَلامُ الدَّهْرِيَّةِ وَالْمُلْحِدَةِ[٣].

حَدُّ الأُخُوَّةِ

أَنَا أَقُولُ: الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَدُّ الصَّدَاقَةِ اكْتِسَابُ نَفْسٍ إِلَىٰ نَفْسِكَ، وَرُوحٍ إِلَىٰ رُوحِكَ وَهَذَا الحَدُّ يُرِيحُكَ عَنْ طَلَبِ مَا لَيْسَ فِي الْوُجُودِ حُصُولُهُ؛ لأَنَّ نَفْسَكَ الأَصْلِيَّةَ لاَ تُعْطِيكَ مَحْضَ النَّفْعِ الَّذِي لاَ يَشُوبُهُ إِضْرَارٌ؛ فَالنَّفْسُ الْمُكْتَسَبَةُ لاَ تَطْلُبُ مِنْهَا هَذَا الْعِيَارَ، وَقَدْ بَيَّنْتُ الْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ الصَّفْوِ الخَالِصِ، وَهُوَ تَغَايُرُ

---

(١) تصاريفكم: تقلُّباتكم.
(٢) البَثْقُ - بالفتح والكَسْر - : مُنْبَعَثُ الماء، والجمعُ بُثُوقٌ.
(٣) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٤ / ١٤١).

الأَمْزِجَةِ، وتَغْلِيبُ الأَخْلاطِ، واخْتِلافُ الأَزْمِنَةِ والأَغْذِيَةِ، فَإِنْ رَطبَ وَرَاقَ بِالماءِ وَرَقَّ بِالْهَوَاءِ، ثَقُلَ وَرَسَبَ بِالتُّرَابِ، وَإِنْ شَفَّ[١] وَصَفَا بِالرُّوحِ، كَثُفَ[٢] وكَدُرَ بِالجَسَدِ، وَإِنْ اسْتَقَامَ بِالْعَقْلِ تَرَنَّحَ[٣] بِالْهَوَىٰ، وَإِنْ خَشَعَ بِالمَوْعِظَةِ قَسَا بِالْغُرُورِ، وَإِنْ لَطُفَ بِالْفِكْرِ غَلُظَ بِالْغَفْلَةِ، وَإِنْ سَخَا بِالرَّجَاءِ بخلَ بِالْقُنُوطِ؛ فَإِذَا كَانَتْ الخِلالُ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ بِهَذِهِ المُشَاكَلَةِ مِنْ التَّنَافُرِ، كَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ الشَّخْصَيْنِ المُتَغَايِرَيْنِ بِالخِلْقَةِ، وَالأَخْلاقِ - الاتِّفَاقُ، وَالائْتِلافُ؟!.

فَإِذَا ثَبَتَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ أَفَادَتْ شَيْئَيْنِ: إِقَامَةَ الأَعْذَارِ وَحُسْنَ التَّأْوِيلِ الحَافِظِ لِلْمَوَدَّاتِ، وَالدُّخُولَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ بِأَنَّ مَا يَنْدُرُ مِنْ الأَخْلاقِ المَحْمُودَةِ إِذَا غَلَبَ عَلَىٰ أَخْلاقِ الشَّخْصِ مَعَ الشَّخْصِ فَهُمَا الصَّدِيقَانِ، فَأَمَّا طَلَبُ الدَّوَامِ وَالسَّلامَةِ مِنْ الإِخْلالِ فِي ذَلِكَ وَالانْخِرَامُ - فَهُوَ الَّذِي أَوْجَبَ الْقَوْلَ لِمَنْ قَالَ: إِنَّ الصَّدِيقَ اسْمٌ لِمَنْ لَمْ يَخْرُجْ إِلَىٰ الْوُجُودِ، وَإِنْ تَبِعَ ذَلِكَ فِي الأَسْمَاءِ كُلِّهَا، وَجَبَ إِفْلاسُ المُسَمَّيَاتِ .

فَأَمَّا تَسْمِيَةُ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ عَبْدًا مَعَ ارْتِكَابِ المُخَالَفَةِ فَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنْ الحَقِيقَةِ، إِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ مِنْ طَرِيقِ شَوَاهِدِ الصَّنْعَةِ الَّتِي تَنْطِقُ بِوَحْدَتِهِ فِيهَا بِغَيْرِ شَرِيكٍ لَهُ فِي إِخْرَاجِهِ إِلَىٰ الْوُجُودِ، فَأَمَّا مِنْ طَرِيقِ إِجَابَةِ عَادَةِ الْعَبْدِ المَعْبُودِ فَلا، فَمَنْ لا يَصْفُو لَهُ اسْمُ عَبْدٍ لِرَبٍّ أَبْدَأَهُ وَأَنْشَأَهُ وَلا يَصْفُو لِنَفْسِهِ فِي اسْمِ نَاصِحٍ لَهَا بِطَاعَةِ عَقْلِهِ،

(١) شَفَّ يَشِفُّ - بالكسر - شُفُوفًا وشفيفًا: رَقَّ.
(٢) كَثُفَ: غَلُظَ، وبَابُهُ ظَرُفَ.
(٣) ترنَّحَ: تَمَايَلَ.

وَعِصْيَانِ هَوَاهُ - يُرَادُ مِنْهُ أَنْ يَصْفُوَ فِيهِ اسْمُ صَدِيقٍ، فَاقْنَعْ مِنَ الصَّدَاقَةِ بِمَا قَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْكَ فِي الْعُبُودِيَّةِ، مَعَ أَنَّكَ مَا صَفَوْتَ فِي الاسْمِ؛ فَأَنْتَ إِلَىٰ أَنْ تَكُونَ عَبْدَ هَوَاكَ وَشَيْطَانِكَ أَقْرَبُ؛ لأَنَّ مُوَافَقَتَهَا فِيهِ أَكْثَرُ.

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَلا هو اقْتَصَرَ فِي ذَاكَ عَلَىٰ الآدَمِيِّ، بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ صَدَرَ عَنْ الْفَاعِلِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ لَمْ يَصْفُ مِنْ شَوْبٍ، حَتَّىٰ الأَغْذِيَةِ وَالأَدْوِيَةِ ذَاتِ الْمَضَارِّ وَالْمَنَافِعِ، إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كُلُّهُ كَذَا، فَطَلَبُ مَا وَرَاءَ الطِّبَاعِ طَلَبُ مَا لاَ يُسْتَطَاعُ، وَذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الْعَنَتِ[١]، وَالتَّنَطُّعِ[٢]، وَمَنْ طَلَبَ الْعَزِيزَ[٣] الْمُمْتَنِعَ، عَذَّبَ نَفْسَهُ، وَجَهَّلَ عَقْلَهُ، وَضَلَّلَ رَأْيَهُ، وَقَبِيحٌ بِالْعَقْلِ أَنْ يَعْتَمِدَ إِضْرَارَ نَفْسِهِ، وَإِتْعَابَهَا فِيمَا لاَ يُجْدِي نَفْعًا بِتَعْجِيلِ التَّعَبِ ضَرَرًا، وَمَعَ كَوْنِ النَّفْسِ تَطْلُبُ الْكَمَالَ فِي الصَّدَاقَةِ وَفِي الْعَيْشِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ ظَهَرَ إِلَىٰ الْوُجُودِ نَاقِصًا فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي طَيِّ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ الإِلَهِيِّ ذَلِكَ وَيَسْتَخْرِجُهُ إِلَىٰ الْوُجُودِ وَقْتَ الإِعَادَةِ، وَإِرَادَةِ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَمَنْحِهِ النَّعِيمَ الْبَاقِيَ.

ثُمَّ ذَكَرَ صِفَةَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: فَقَطْعُ الْكَلامِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ يُقَالَ: إِنْ وَجَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ خِلالَ الصَّدَاقَةِ وَشُرُوطَهَا مَعَ النَّقْدِ وَالاخْتِبَارِ مِنَ الْهَوَىٰ لَمْ تَجِدْ لِنَفْسِكَ ثَانِيًا، فَقُلْ مَا شِئْتَ مِنَ اللَّوْمِ، وَالْعَذْلِ وَالتَّوْبِيخِ وَنُحْ عَلَىٰ أَبْنَاءِ

---

(١) العَنَتْ: الوقوع في أَمْرٍ شاقٍّ، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٢) التَّنَطُّع: التَّعَمُّق والمُغالاة والتَّكَلُّف.

(٣) العزيز: الَّذي لا يُقْدَرُ عَلَيْه، يُقَالُ: عَزَّ الشَّيْءُ يَعِزُّ عِزًّا - بكَسْرِ العَيْنِ فيهما - وَعَزَازَةً - بالفتح - فهو عَزِيزٌ: إذا قَلَّ فلا يَكادُ يُوجَدُ.

الزَّمَانِ بِالْوَحْدَةِ فِي هَذَا المَقَامِ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ تَجِدْ ذَاكَ فِي نَفْسِكَ لِعَجْزِ الْبِنْيَةِ عَنْهُ، فَاقْطَعِ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ؛ فَلا مُؤَاخَذَةَ عَلَىٰ مَا لاَ يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ.

وَقَالَ -أَيْضًا-: صَدَاقَةُ الْعُقَلاءِ قَرَابَةُ الأَبَدِ، وَمَحَبَّةُ الدُّخَلاءِ[١] فَرَحُ سَاعَةٍ[٢].

نَقْضُ العَهْدِ

يا مَنْ يَجِدُ في قَلْبِهِ قَسْوَةً، احْذَرْ أَنْ تَكُونَ نَقَضْتَ عَهْدًا؛ فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَىٰ - يَقُولُ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣].

وَسُئِلَ فَقِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ في عُزْلَةِ الجَاهِلِ؟. فَقَالَ: خَبَالٌ[٣] وَوَبَالٌ، تَضُرُّهُ ولا تَنْفَعُهُ. فَقِيلَ لَهُ: فَعُزْلَةِ العَالِمِ؟. قَالَ: «مَا لَكَ وَلَهَا؟؛ مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا[٤]، تَرِدُ المَاءَ، وَتَرْعَىٰ الشَّجَرَ إِلَىٰ أَنْ يَلْقَاهَا رَبُّهَا[٥]»[٦][٧].

(١) الدُّخَلاءِ: جَمْعُ دَخِيلٍ، وهو الدَّاخِلُ في القَوْمِ ولَيْسَ مِنْهُمْ.
(٢) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٤/ ٢٤٠ - ٢٤٢).
(٣) الخَبَال - بالفتح -: الفساد.
(٤) المُرادُ هُنَا ضَالَّةُ الإبلِ، وعَنَىٰ - ﷺ - بالحِذَاءِ: أَخْفَافَهَا الَّتِي تَقْوَىٰ بِهَا عَلَىٰ قَطْعِ الأَرْضِ، وَتَمْتَنِعُ بِهَا عَنْ صِغَارِ السِّبَاعِ المُفْتَرِسَةِ. وبالسِّقَاءِ: صَبْرَهَا عَنِ المَاءِ وَقُوَّتَهَا عَلَىٰ وُرُودِه. شَبَّهَهَا بِمَنْ كَانَ مَعَهُ حِذَاءٌ (أي: نَعْلٌ) وسِقَاءٌ (أي: قِرْبَةُ مَاءٍ) في سَفَرِه. وَهُنَا شُبِّهَ العالِمُ المُعْتَزِلُ بالنَّاقَةِ الضَّالَّةِ في عَدَمِ الخَوْفِ عَلَيْهَا؛ فإنَّ مَعَهُ عِلْمَهُ، يَمْتَنِعُ بِهِ عَنِ الشَّيْطَانِ وإِضْلالِه.
(٥) رَبُّهَا: مَالكها.
(٦) رواه البُخَارِيُّ (٢٣٧٢)، ومُسلمٌ (١٧٢٢).
(٧) «الذَّيْل» (١/ ٣٥٣ - ٣٥٤).

كلُّ مُحَدِّثٍ فقيه

وَمِنْ عَجِيبِ مَا نَسْمَعُ مِنْ هؤُلاءِ الأَحْدَاثِ الجُهَّالِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَحْمَدُ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، لَكِنَّهُ مُحَدِّثٌ، وَهَذَا غَايَةُ الجَهْلِ؛ لأَنَّهُ قَدْ خُرِّجَ(١) عَنْهُ اخْتِيارَاتٌ بَنَاهَا عَلَىٰ الأَحَادِيثِ بِنَاءً لا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُهُمْ، وَخُرِّجَ عَنْهُ مِنْ دَقِيقِ الفِقْهِ مَا لا تَرَاهُ لأَحَدٍ مِنْهُمْ.

وَذَكَرَ مَسَائِلَ مِنْ كَلامِ الإمامِ أَحْمَدَ، ثُمَّ قَالَ: وَما يَقْصِدُ هَذَا إِلاَّ مُبْتَدِعٌ، قَدْ تَمَزَّقَ فُؤَادُهُ مِنْ خُمُودِ كَلِمَتِهِ، وانْتِشَارِ عِلْمِ أَحْمَدَ، حَتَّىٰ إِنَّ أَكْثَرَ العُلَمَاءِ يَقُولُونَ: أَصْلِي أَصْلُ أَحْمَدَ، وَفَرْعِي فَرْعُ فُلانٍ، فَحَسْبُكَ بِمَنْ يُرْضَىٰ بِهِ فِي الأُصُولِ قُدْوَةً!(٢).

مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ عَلَى الْعِبَادِ

إِنَّ أَجَلَّ تَحْصِيلٍ عِنْدَ الْعُقَلاءِ - بِإِجْمَاعِ العُلَمَاءِ - الوَقْتُ؛ فَهُوَ غَنِيمَةٌ تُنْتَهَزُ فِيهَا الفُرَصُ، فالتَّكَالِيفُ كَثِيرَةٌ، والآدابُ خَاطِفَةٌ، وَأَقَلُّ مُتَعَبَّدٍ بِهِ المَاءُ، وَمَنِ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ عَلِمَ قَدْرَ التَّخْفِيفِ. فَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ - ﷺ -: «صُبُّوا عَلَىٰ بَوْلِ الأَعْرَابِيِّ ذَنُوبًا(٣) مِنَ المَاءِ»(٤).

---

(١) خُرِّجَ: اسْتُنْبِطَ.
(٢) «الذَّيل» (١/٤٧ - ٤٨).
(٣) الذَّنُوب - بِزِنَةِ الرَّسُول -: الدَّلْوُ العَظِيمة المَلأَىٰ، والجَمْعُ أَذْنِبةٌ، وذِنَابٌ، وذَنَائِبُ.
(٤) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٢٢١)، ومُسْلِم (٢٨٤).

وَقَـوْلُهُ – ﷺ – في المَنِيِّ: «أَمِطْهُ عَنْكَ» (١). وَقَـوْلُهُ – ﷺ – في الخُفِّ: «طَهُورُهُ أَنْ تَدْلُكَهُ بِالأَرْضِ» (٢).

وَفِي ذَيْلِ المَرْأَةِ: «يُطَهِّرُهُ مَا بَعْدَهُ» (٣). وَقَوْلُهُ – ﷺ –: «يُغْسَلُ بَوْلُ الجَارِيَةِ، وَيُنْضَحُ بَوْلُ الغُلَامِ» (٤).

و«كَانَ – ﷺ – يَحْمِلُ بِنْتَ أَبِي العَاصِ فِي الصَّلَاةِ» (٥).

وَنَهَى – ﷺ – الرَّاعِي فِي إِعْـلَامِ السَّائِلِ عَنِ المَاءِ، ومـا يَرِدُهُ، وَقَـالَ: «يا صَاحِبَ المِيزَابِ، لا تُخْبِرْهُ» (٦).

فَإِنْ خَطَرَ بِالبَـالِ نَوْعُ احْتِيَاطٍ فِي الطَّهَارَةِ كَالاحْتِيَاطِ فِي غَيْرِهَا فِي مُرَاعَاةِ

---

(١) صحيحٌ، أخرجه البَيْهَقيُّ في السُّنن الكُبْرَىٰ (٢ / ٤١٨) موقوفًا علىٰ ابن عبَّاسٍ، وَرُوِيَ مَرْفُوعًا، ولا يَصِحُّ.

(٢) يُشيرُ إِلَىٰ ما رَوَاهُ أبو هُرَيرَةَ مَرْفُوعًا: «إذا وطِئَ أَحَدُكُمْ بِنَعْلِهِ الأَذَىٰ، فإنَّ التُّرَابَ لَهُ طَهورٌ» أخرجه أبو داودُ (٣٨٥)، وصحَّحَهُ الأَلْبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٣٧١).

(٣) صحيحٌ، أخرجه أبو داودَ (٣٨٣)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٣٦٩)، مِنْ حَديثِ أُمِّ سَلَمَةَ.

(٤) صحيحٌ، أَخْرَجَهُ أَبُو داودَ (٣٧٨)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح أبي داودَ» (٣٧٨) مِنْ حَديثِ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالبٍ.

(٥) أخرجه البُخَارِيُّ (٥١٦)، وَمُسْلِم (٥٤٣) عن أبي قَتَادَةَ.

(٦) أخرج الدَّارَقُطْنِيُّ في سُننه (رقم ٣٠) عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – في بَعْضِ أَسْفَارِهِ لَيْلاً، فَمَرُّوا عَلَىٰ رَجُلٍ جَالِسٍ عِنْدَ مَقْرَاةٍ لَهُ، فَقَال لَهُ عُمَرُ: يا صاحبَ المَقْرَاة، أَوَلَغَتِ السِّبَاعُ اللَّيْلَةَ في مَقْرَاتِكَ؟ فَقَالَ له النَّبيُّ – ﷺ –: «يا صاحبَ المَقْرَاة، لا تُخْبِرْهُ». وضَعَّفَهُ الأَلْبانيُّ في «تَمَامِ المِنَّةِ» (ص٤٨)، والمَقْرَاةُ – بالفتح –: الحَوْضُ الَّذي يَجْتَمِعُ فيه الماءُ.

الإِطَالَةِ، وَغَـيْبُوبَةِ الشَّـمْسِ، والزَّكَـاةِ - فـإِنَّهُ يَفُـوقُ مِنَ الأَعْـمَـالِ مَا لا يَـفِي بِهِ الاحْتِيَاطُ في الماءِ الَّذي أَصْلُهُ الطَّهَارَةُ، وَقَدْ صَافَحَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - الأَعْرَابيَّ، وَرَكِبَ الحِمَارَ، وَمَا عُرِفَ مِنْ خُلُقِهِ التَّعَبُّدُ بِكَثْرَةِ الماءِ[١]، وَتَوَضَّأَ مِنْ سِقَايَةِ المَسْجِدِ[٢] - وَمَعْلُومٌ حَالُ الأَعْرَابِ الَّذينَ بَانَ مِنْ أَحَدِهِمُ الإِقْدَامُ عَلَىٰ البَوْلِ في المَسْجِدِ -، وَتَوَضَّأَ مِنْ جَرَّةِ نصْرَانِيَّةٍ، وَمَا احْتَرَزَ تَعْلِيمًا لَنَا وَتَشْرِيعًا، وَتَوَضَّأَ مِنْ غَدِيرٍ، كَأَنَّ مَاءَهُ نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ[٣].

فَأَمَّا قَوْلُهُ - ﷺ -: «تَنَزَّهُوا مِنَ البَوْلِ»[٤]؛ فَإِنَّ للتَّنَزُّهِ حَدًّا مَعْلُومًا، فَأَمَّا الاسْتِشْعَارُ فَإِنَّهُ إِذَا نَمَا وَانْقَطَعَ الوَقْتُ بِمَا لا يَقْتَضِي بِمِثْلِهِ الشَّرْعُ[٥].

---

(١) ثَبَتَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ سَفِينَةَ أَنَّهُ - ﷺ - كَانَ يَغْتَسِلُ بالصَّاعِ، ويَتَوَضَّأُ بالمُدِّ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٣٢٦)، و هو عِنْدَ البُخَارِيِّ (٢٠١)، وَمُسْلِم (٣٢٥)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ بِنَحْوِهِ.

(٢) أَخْرَجَ الإِمَامُ مُسْلِمٌ (٧٦٣)، وأَحْمَدُ (١/٢٤٩)، والنَّسَائِيُّ في «الكُبْرَىٰ» (٩١٦) - واللَّفْظُ لَهُمَا - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أَتَىٰ خَالَتَهُ مَيْمُونَةَ، قَالَ: فَقَامَ النَّبِيُّ - ﷺ - مِنَ اللَّيْلِ إِلَىٰ سِقَايَةٍ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ.

(٣) قَالَ الحَافِظُ في «الفتح» (١٠/٢٣٠): «نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ - بِضَمِّ النُّونِ - وَتَخْفِيفِ القَافِ - والحِنَّاءُ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ بالمُدِّ، أَيْ: أَنَّ لَوْنَ مَاءِ البِئْرِ لَوْنُ المَاءِ الَّذي يُنْقَعُ فيه الحِنَّاءُ».

(٤) صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ في سُنَنِهِ (٤٧) عَنْ أَنَسٍ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ في «الإرواء» (٢٨٠).

(٥) «تَلْبِيسُ إِبْلِيسَ» (٢/٧٨٤)، و«الذَّيْلُ عَلَىٰ طَبَقَاتِ الحَنَابِلَةِ» (١/٣٣٢ - ٣٣٣).

مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لله، عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ

حَجَجْتُ في بَعْضِ السِّنِينَ، فَبَيْنَمَا أَنَا في الحَرَمِ، إذَا بِشَيْءٍ يَلُوحُ، وَلَهُ شُعَاعٌ، فَأَخَذْتُهُ، وإذَا بِعِقْدِ لُؤْلُؤٍ، لَهُ قِيمَةٌ، وهُوَ مَنْظُومٌ بِخَيْطٍ أَحْمَر، فَبَيْنَما أَنَا أُقَلِّبُهُ، وإذَا بِشَيْخٍ أَعْمَىٰ يَقُولُ: مَنْ رَأَىٰ عِقْداً مِنْ لُؤْلُؤٍ وَرَدَّهُ، فَلَهُ مِائَةُ دِينَارٍ. فَقُلْتُ لَهُ: مَا عَلامَتُهُ؟.

فَقَالَ: هُوَ في خَيْطٍ أَحْمَرَ. فَقُلْتُ: خُذْ عِقْدَكَ. فَقَالَ: خُذِ الدَّنَانِيرَ. فَقُلْتُ: لا، واللهِ.

واتَّفَقَ أَنَّني خَرَجْتُ إِلَىٰ الشَّامِ، وَزُرْتُ الْبَيْتَ المُقَدَّسَ، وَنَزَلْتُ إِلَىٰ دِمَشْقَ، وَقَصَدْتُ بَغْدَادَ، وكَانَتْ أُمِّي بَاقِيَةً، فَاجْتَزْتُ بِحَلَبَ، فَدَخَلْتُهَا آخِرَ النَّهَارِ، فَأَوَيْتُ إِلَىٰ مَسْجِدٍ، وَأَنا جَائِعٌ بَرْدَان، فَقَالَ لي زبونُ[1] المَسْجِدِ: تَقَدَّمْ، فَصَلِّ بِنَا. فَصَلَّيْتُ بِهِمْ فَعَشَّوْنِي، وَكَانَتْ لَيْلَةَ رَمَضَانَ، فَقَالُوا: إِمَامُنا قَدْ تُوُفِّي مُنْذُ أَيَّامٍ - وَكَانَ شَيْخًا صَالِحًا مَكْفُوفًا - ، ونَسْأَلُكَ أَنْ تُقِيمَ عِنْدَنَا هَذَا الشَّهْرَ. فَأَقَمْتُ أُصَلِّي بِهِمْ، فقَالوا: للشَّيْخِ الَّذي كَانَ إِمَامَنا بِنْتٌ، نُزَوِّجُكَ إِيَّاها. فَزَوَّجُونِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهَا سَنَةً، وَأَوْلَدْتها وَلَداً ذَكَرًا، ثُمَّ مَرِضَتْ في نِفَاسِهَا، فَتَأَمَّلْتُهَا ذَاتَ يَوْمٍ، وَإِذَا بِخَيْطٍ أَحْمَرَ في عُنُقِهَا، وَإِذَا بِهِ الْعِقْدُ الَّذي لَقِيتُهُ بِعَيْنِه، فَقُلْتُ لَهَا: يَا هَذِهِ، إنَّ هَذَا العِقْدَ الَّذي قِصَّتُهُ كَذَا وَكَذَا؟. فَبَكَتْ وَقَالَتْ: أَنْتَ هُوَ - وَاللهِ - ،

---

(١) زُبُون المسجد: القائم علىٰ عَمَلِ المَسْجِدِ.

لَقَدْ كَانَ أَبِي يَبْكِي، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ، ارْزُقِ ابْنَتِي مِثْلَ الَّذي رَدَّ الْعِقْدَ عَلَيَّ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ مِنْهُ؛ لأَنَّهُ كَانَ صَالحًا. ثُمَّ مَاتَتْ، فَأَخَذْتُ العِقْدَ والمِيرَاثَ، وَعُدْتُ إِلَىٰ بَغْدَادَ[١].

عُلُوُّ الهِمَّةِ

عَصَمَنِي اللهُ في شَبَابي بِأَنْوَاعٍ مِنَ العِصْمَةِ، وقَصَرَ مَحَبَّتي عَلَىٰ العِلْمِ، وَما خَالَطتُ لَعَّابًا قَطُّ، ولا عَاشَرْتُ إلاَّ أَمْثَالِي مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ، وأَنَا في عَشْرِ الثَّمَانِينَ أَجِدُ مِنَ الحِرْصِ عَلَىٰ العِلْمِ أَشَدَّ مِمَّا كُنْتُ أَجِدُهُ وَأَنَا ابْنُ عِشْرِينَ، وبَلَغْتُ لاثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وأَنَا الْيَوْمَ لا أَرَىٰ نَقْصًا في الخَاطِرِ والْفِكْرِ والحِفْظِ، وَحِدَّةِ النَّظَرِ بِالْعَيْنِ لِرُؤْيَةِ الأَهِلَّةِ الخَفِيَّةِ، إلاَّ أَنَّ القُوَّةَ ضَعِيفَةٌ[٢].

الجِنُّ يَسْكُنُونَ البُيُوتَ المَأْهُولَةَ

كَانَ عِنْدَنَا بالظَّفَرِيَّةِ[٣] دَارٌ، كُلَّمَا سَكَنَهَا نَاسٌ أَصْبَحُوا مَوْتَىٰ، فَجَاءَ مَرَّةً

---

(١) «مِرْآةُ الزَّمَانِ في تَارِيخِ الأَعْيَانِ» لِسِبْطِ بْنِ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - (٢/٦٩٦)، ونَقَلَهَا عَنْهُ الذَّهبيُّ في السِّيَرِ (١٩/٤٤٩ - ٤٥٠).

(٢) «السِّيَر» (١٩/٤٤٦).

(٣) الظَّفَرِيَّة - بالتَّحريك - : مَحَلَّةٌ بشرقي بَغْدَادَ كَبيرةٌ، لَعَلَّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ ظَفَرٍ أَحَدِ خَدَمِ دَارِ الخِلافَةِ.

رَجُلٌ مُقْرِئٌ، فاكْتَرَاهَا، وَارْتَضَىٰ بِهَا وَأَصْبَحَ سَالمًا، فَعَجِبَ الجيرَانُ، وَأَقَامَ مُدَّةً، ثُمَّ انْتَقَلَ، فَسُئِلَ، فَقَالَ: لَمَّا بِتُّ بِهَا صَلَّيْتُ العِشَاءَ، وَقَرَأْتُ شَيْئًا، وإِذَا شَابٌّ قَدْ صَعِدَ مِنَ البِئْرِ، فسَلَّمَ عَلَيَّ، فَبُهِتُّ[١]، فَقَالَ: لا بَأْسَ عَلَيْكَ، عَلِّمْنِي شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ، فَشَرَعْتُ أُعَلِّمُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: هَذِهِ الدَّارُ، كَيْفَ حَدِيثُهَا؟!.

قَالَ: نَحْنُ جِنٌّ مُسْلِمونَ، نَقْرَأُ وَنُصَلِّي، وَهَذِهِ الدَّارُ مَا يَكْتَرِيهَا إِلاَّ الفُسَّاقُ، فَيَجْتَمِعونَ عَلَىٰ الخَمْرِ؛ فَنَخْنُقُهُمْ. قُلْتُ: ففي اللَّيْلِ أَخَافُكَ؛ فَجِيءَ نَهَارًا. قَالَ: نَعَمْ. فَكَانَ يَصْعَدُ مِنَ البِئْرِ في النَّهَارِ وَأَلِفْتُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ، إِذا بِمُعَزِّمٍ[٢] في الدَّرْبِ يَقُولُ: المُرْقي مِنَ الدَّبيبِ[٣]، وَمِنَ العَيْنِ، وَمِنَ الجِنِّ. فَقَالَ: أَيْشٍ هَذَا[٤]؟. قُلْتُ: مُعَزِّمٌ. قَالَ: اطْلُبْهُ. فَقُمْتُ وَأَدْخَلْتُهُ، فَإِذَا الجِنِّيُّ قَدْ صَارَ ثُعْبَانًا في السَّقْفِ، فَعَزَّمَ الرَّجُلُ، فَمَا زَالَ الثُّعْبَانُ يَتَدَلَّىٰ، حَتَّىٰ سَقَطَ في وَسَطِ المَنْدَلِ[٥]، فَقَامَ لِيَأْخُذَهُ وَيَضَعَهُ في الزِّنْبيلِ، فَمَنَعْتُهُ، فَقَالَ: أَتَمْنَعُنِي مِنْ صَيْدِي؟!. فَأَعْطَيْتُهُ دِينَارًا وَرَاحَ، فَانْتَفَضَ الثُّعْبَانُ، وَخَرَجَ الجِنِّيُّ، وَقَدْ ضَعُفَ، وَاصْفَرَّ وَذَابَ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ؟!. قَالَ: قَتَلَنِي هَذَا بِهَذِهِ الأَسَامِي، وَمَا أَظُنُّنِي أُفْلِحُ؛ فاجْعَلْ بَالَكَ اللَّيْلَةَ، مَتَىٰ سَمِعْتَ في البِئْرِ صُرَاخًا فَانْهَزِمْ[٦].

---

(١) فبُهِتُّ: دُهِشْتُ وَتَحَيَّرْتُ. (٢) المُعَزِّم: الرَّاقي.

(٣) الدَّبيب: اسمٌ لما دَبَّ مِنَ الحَيَوَانِ عَلَىٰ الأَرْضِ.

(٤) أيش: أَصْلُها أيُّ شَيْءٍ، فَاخْتُصِرَتِ الكَلِمَتَانِ مَعَ كَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ.

(٥) المَنْدَل - بزنَة المَقْعَد -: الخُفُّ.

(٦) انْهَزِمْ: أيْ اخْرُجْ مِنَ البَيْتِ سَرِيعًا؛ لِئَلاَّ تُؤْذَىٰ.

قَالَ: فَسَمِعْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ النَّعِيَّ[١]، فَانْهَزَمْتُ؛ وامْتَنَعَ أَحَدٌ أَنْ يَسْكُنَ تِلْكَ الدَّارَ بَعْدَهَا[٢].

تَقْرِيرُ البَعْثِ والمَعَاد

وَاللهِ، لاَ أَقْنَعُ مِنَ اللهِ - سُبْحَانَهُ - بِهَذِهِ اللَّمْحَةِ الَّتِي مُزِجَتْ بِالعَلاَقِمِ[٣]، وَلا أَقْنَعُ مِنَ الأَبَدِيِّ السَّرْمَدِيِّ إِلاَّ بِبَقَاءٍ سَرْمَدِيٍّ، ولا يَلِيقُ بِذَا الكَرَمِ إِلاَّ إِدَامَةُ النِّعَمِ. واللهِ ما لَوَّحَ بِمَا لَوَّحَ إِلاَّ وَقَدْ أَعَدَّ مَا تَخَافُهُ الآمَالُ، وَما قَدَحَ أَحَدٌ في كَمَالِ جُودِ الخَالِقِ وَإِنْعَامِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ جَحْدِهِ الْبَعْثَ مَعَ تَسْوِيفِ النُّفُوسِ، وَتَعْلِيقِ القُلُوبِ بالإِعَادَةِ، وَالجَزَاءِ عَلَىٰ الأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، الَّتِي هَجَرَ الْقَوْمُ فِيهَا اللَّذَّاتِ، فَصَبَرُوا عَلَىٰ البَلاءِ طَمَعًا في العَطَاءِ.

قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ لَنَا إِعَادَةً تَتَضَمَّنُ بَقَاءً دَائِمًا، وَعَيْشًا سَالِمًا، إِنَّ أَصَحَّ الدَّلاَلَةِ قَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ كَمَالِ البَارِئِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، وَخُرُوجِهِ عَنِ النَّقَائِصِ، وَقَد اسْتَقْرَيْنَا أَفْعَالَهُ، فَرَأَيْنَاهُ قَدْ أَعَدَّ كُلَّ شَيْءٍ، فَالسَّمْعُ لِلْمَسْمُوعَاتِ، والْعَيْنُ لِلْمُبْصَرَاتِ، وَالأَسْنَانُ لِلطَّحْنِ، وَالْمَنْخَرَانِ لِلشَّمِّ، وَالْمَعِدَةُ لِطَبْخِ الطَّعَامِ، وَقَدْ

---

(١) النَّعِيّ - بِزِنَةِ الغَنِيّ -: النِّدَاء بِمَوْتِ المَيِّتِ.

(٢) «السِّيَر» (١٩/ ٤٥٠ - ٤٥١).

(٣) العلاقم: جمعُ العَلْقَم، وهُوَ كُلُّ شَيْءٍ مُرٌّ.

بَقِيَ للنَّفْسِ غَرَضٌ قَدْ عُجِنَ في طِينِهَا، وَهُوَ البَقَاءُ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ، وَبُلُوغُ الأَغْرَاضِ مِنْ غَيْرِ أَذَىً، وَقَدْ عَدِمَتِ النَّفْسُ ذَلِكَ في الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّا نَرَىٰ طَالَمَا لَمْ يقَابِلْ، ولا تَقْتَضِي الحِكْمَةُ لِذَلِكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهَا ذَلِكَ في دَارٍ أُخْرَىٰ.

قَالَ: وَلا تَنْظُرْ إِلَىٰ صُورَةِ البِلَىٰ في القُبُورِ؛ فَكَمْ مِنْ بِدَايَةٍ خَالَفَتْهَا النِّهَايَةُ، فَإِنَّ بِدَايَةَ الآدَمِيِّ والطَّيْرِ مَاءٌ مُسْتَقْذَرٌ، وَمَبَادِئُ النَّبَاتِ حَبٌّ عَفِنٌ، ثُمَّ يَخْرُجُ الآدَمِيُّ والطَّاوُوسُ، وكَذَلِكَ خُرُوجُ الْمَوْتَىٰ بَعْدَ البِلَىٰ[1].

تَكْرِيمُ اللهِ لعَبْدِهِ

لَقَدْ عَظَّمَ اللهُ الْحَيَوَانَ لاسِيَّمَا ابْنُ آدَمَ؛ حَيْثُ أَبَاحَهُ الشِّرْكَ عِنْدَ الإِكْرَاهِ، وَخَوْفِ الضَّرَرِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النَّحْل: ١٠٦].

مَنْ قَدَّمَ حُرْمَةَ نَفْسِكَ عَلَىٰ حُرْمَتِهِ، حَتَّىٰ أَبَاحَكَ أَنْ تَتَوَقَّىٰ وَتَتَحَامَىٰ عَنْ نَفْسِكَ بِذِكْرِهِ بِمَا لا يَنْبَغِي لَهُ - سُبْحَانَهُ - لَحَقِيقٌ أَنْ تُعَظِّمَ شَعَائِرَهُ، وَتُوَقِّرَ أَوَامِرَهُ وَزَوَاجِرَهُ. وَعَصَمَ عِرْضَكَ بِإِيجَابِ الحَدِّ بِقَذْفِكَ، وَعَصَمَ مَالَكَ بِقَطْعِ يَدِ مُسْلِمٍ في سَرِقَتِهِ، وَأَسْقَطَ شَطْرَ الصَّلاةِ[2] لأَجْلِ مَشَقَّتِكَ، وأَقَامَ مَسْحَ الخُفِّ مَقَامَ غَسْلِ

(١) «الذَّيْلُ عَلَىٰ طَبَقَاتِ الحَنَابِلَة» (١/ ٣٤١ - ٣٤٢).

(٢) شَطْرُ الصَّلاة - بالفتح - : نِصْفُها.

الرِّجْلِ؛ إشْفَاقًا عَلَيْكَ مِنْ مَشَقَّةِ الْخَلْعِ وَاللُّبْسِ، وأَبَاحَكَ المَيْتَةَ سَدًّا لِرَمَقِكَ[١]، وَحِفْظًا لِصِحَّتِكَ، وَزَجَرَكَ عَنْ مَضَارِّكَ بِحَدٍّ عَاجِلٍ، وَوَعِيدٍ آجِلٍ، وَخَرَقَ العَوائِدَ لأَجْلِكَ، وأَنْزَلَ الْكُتُبَ إِلَيْكَ، أَيَحْسُنُ بِكَ - مَعَ هَذَا الإِكْرَامِ - أَنْ تُرَىٰ عَلَىٰ مَا نَهَاكَ مُنْهَمِكًا، وَعَمَّا أَمَرَكَ مُتَنَكِّبًا، وَعَنْ دَاعِيهِ مُعْرِضًا، وَلِسُنَّتِهِ هَاجِرًا، وَلِدَوَاعِي عَدُوِّكَ فِيهِ مُطِيعًا؟!.

يَعِظُكَ وَهُوَ هُوَ، وَتُهْمِلُ أَمْرَهُ وَأَنْتَ أَنْتَ!، هُوَ حَطَّ رُتَبَ عِبَادِهِ لأَجْلِكَ، وَأَهْبَطَ إِلَىٰ الأَرْضِ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ سَجْدَةٍ يَسْجُدُهَا لَكَ، هَلْ عَادَيْتَ خَادِمًا طَالَتْ خِدْمَتُهُ لَكَ لِتَرْكِ صَلاةٍ؟!، هَلْ نَفَيْتَهُ مِنْ دَارِكَ لِلإِخْلالِ بِفَرْضٍ، أو لارْتِكَابِ نَهْيٍ؟!.

فَإِنْ لَمْ تَعْتَرِفْ اعْتِرَافَ الْعَبِيدِ لِلْمَوَالِي، فَلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ تَقْتَضِيَ نَفْسَكَ لِلْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -، اقْتِضَاءَ المُسَاوِي المُكَافِئِ، مَا أَوْحَشَ مَا تَلاعَبَ الشَّيْطَانُ بالإِنْسَانِ بَيْنَا يَكُونُ بِحَضْرَةِ الحَقِّ، وَمَلائِكَةُ السَّمَاءِ سُجُودٌ لَهُ، تَتَرَامَىٰ بِهِ الأَحْوَالُ وَالجَهَالاتُ بالمَبْدَأِ والمآلِ[٢]، إِلَىٰ أَنْ يُوجَدَ سَاجِدًا لِصُورَةٍ فِي حَجَرٍ، أَوْ لِشَجَرَةٍ مِنَ الشَّجَرِ، أَوْ لِشَمْسٍ، أَوِ الْقَمَرِ، أَوْ لِصُورَةِ ثَوْرٍ خَارَ[٣]، أَوْ لِطَائِرٍ صَفَرَ!، مَا أَوْحَشَ زَوَالَ النِّعَمِ، وتَغَيُّرَ الأَحْوَالِ، وَالحَوْرَ بَعْدَ الكَوْرِ[٤]!، لا يَلِيقُ بِهَذَا الحَيِّ

---

(١) الرَّمَقُ - بالتَّحْرِيكِ -: بقيَّةُ الحَيَاة، والجمعُ أَرْمَاقٌ.

(٢) المآل: المَرْجِع.

(٣) خَارَ الثَّوْرُ يَخُورُ خُوارًا - بالضَّمِّ -: صاحَ.

(٤) الحَوْر: النُّقْصان والرُّجُوع. والكَوْر: الزِّيادة مَأْخُوذٌ مِنْ تَكْوِيرِ العِمَامَةِ، وَهُوَ لَفُّهَا وَجَمْعُهَا، والمعْنَىٰ: مَا أَوْحَشَ الرُّجُوعَ بَعْدَ الاستِقَامَةِ، والنُّقْصَانَ بَعْدَ الزِّيَادَةِ، وفَسَادَ الأُمُورِ بَعْدَ صَلاحِهَا!.

الفَاضِلِ عَلَىٰ جَمِيعِ الحَيَوَانِ - أَنْ يُرَىٰ إِلاَّ عَابِداً للهِ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، أَوْ مُجَاوِراً للهِ فِي دَارِ الجَزَاءِ والتَّشْرِيفِ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ فَهُوَ وَاضِعٌ نَفْسَهُ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا[١].

بَذْلُ النَّفْسِ فِي ذَاتِ اللهِ

لا يَعْظُمْ عِنْدَكَ بَذْلُكَ نَفْسَكَ فِي ذَاتِ اللهِ؛ فَهِيَ الَّتِي بَذَلْتَهَا بِالأَمْسِ فِي حُبِّ مُغَنِّيَةٍ، وَهَوَىٰ أَمْرَدَ، وَخَاطَرْتَ بِهَا فِي الأَسْفَارِ لأَجْلِ زِيَادَةِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتَ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ - تَعَالَىٰ - عَظَّمْتَ مَا بَذَلْتَهُ، وَاللهِ، مَا يَحْسُنُ بَذْلُ النَّفْسِ إِلاَّ لِمَنْ إِذَا أَبَادَ أَعَادَ، وإِذَا أَعَادَ أَفَادَ، وَإِذَا أَفَادَ خَلَّدَ فَائِدَتَهُ عَلَىٰ الآبَادِ[٢]؛ وَذَاكَ - وَاللهِ - الَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ بَذْلُ النُّفُوسِ، وَإِبَانَةُ[٣] الرُّءُوسِ، أَلَيْسَ هُوَ القَائِلُ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩]؟![٤].

مِنْ فَضَائِلِ الْمُجْتَهِدِ

مِنْ أَكْبَرِ فَضَائِلِ الْمُجْتَهِدِ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْحُكْمِ عِنْدَ تَرَدُّدِ الْحُجَّةِ والشُّبْهَةِ فِيهِ،

---

(١) «الذَّيْلُ عَلَىٰ طبقات الحَنَابِلَة» (١/٣٣٩ - ٣٤١).

(٢) الآباد: الدُّهُور، جَمعُ أَبَدٍ - بالتَّحْرِيك - ، ويُجْمَعُ - أَيْضًا - عَلَىٰ أُبُودٍ.

(٣) الإبانة: القَطْعُ والفَصْلُ.

(٤) «الذَّيلُ عَلَىٰ طبقات الحَنَابِلَة (١/٣٤٣).

وَإِذَا وَقَفَ عَلَىٰ أَحَدِ المُتَرَدِّدِينَ، دَلَّهُ عَلَىٰ أَنَّهُ مَا عَرَفَ الشُّبْهَةَ، وَمَنْ لا تَعْتَرِضُهُ شُبْهَةٌ، وَلا تَصْفُو لَهُ حُجَّةٌ؟!، وَكُلُّ قَلْبٍ لا يَقْرَعُهُ التَّرَدُّدُ، فإِنَّمَا يَظْهَرُ فِيهِ التَّقْلِيدُ، وَالجُمُودُ عَلَىٰ مَا يُقَالُ لَهُ، وَيَسْمَعُ مِنْ غَيْرِهِ[١].

صِفَةُ الأَرْضِ أَيَّامَ الرَّبِيعِ

إِنَّ الأَرْضَ أَهْدَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ غُبْرَتَهَا بِتَرْقِيَةِ الغُيُومِ، فَكَسَتْهَا السَّمَاءُ زُهْرَتَهَا[٢] مِنَ الكَوَاكِبِ والنُّجُومِ. وَقَالَ: وَكَأَنَّ الأَرْضَ - أَيَّامَ زُهْرَتِهَا - مِرْآةُ السَّمَاءِ في انْطِبَاعِ صُورَتَهَا[٣].

تَسْلِيَةُ النَّفْسِ

مَاتَ وَلَدِي عَقِيلٌ، وَكَانَ قَدْ تَفَقَّهَ وَنَاظَرَ، وَجَمَعَ أَدَبًا حَسَنًا، فَتَعَزَّيْتُ[٤] بِقِصَّةِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ الَّذي قَتَلَهُ عَلِيٌّ - ﷺ - ، فَقَالَتْ أُمُّهُ - تَرْثِيهِ[٥] - :

---

(١) «الذَّيلُ عَلَىٰ طبقات الحَنَابلَة (١/٣٤٨ - ٣٤٩).

(٢) الزُّهْرَة: الحُسْنُ والبَهْجَة.

(٣) «الذَّيلُ عَلَىٰ طبقات الحَنَابلَة (١/٣٥٤).

(٤) تَعَزَّيْتُ: تَصَبَّرْتُ.

(٥) تَرْثِيه: تَبْكيه وَتُعَدِّدُ مَحَاسِنَهُ.

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ
مَا زِلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ دَائِمَ الأَبَدِ
لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لا يُقَادُ[١] بِهِ
مَنْ كَانَ يُدْعَىٰ أَبُوهُ بَيْضَةَ البَلَدِ[٢]

فَأَسْلاهَا وَعَزَّاهَا جَلالَةُ القَاتِلِ، وفَخْرَهَا بِأَنَّ ابْنَهَا مَقْتُولُهُ، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ قَاتِلِ وَلَدِي الحَكِيمِ المَالِكِ، فَهَانَ عَلَيَّ القَتْلُ وَالمَقْتُولُ لِجَلالَةِ القَاتِلِ[٣].

فِرَاقُ الأَحْبَابِ

قَدْ حَمِدْتُ رَبِّي؛ إِذْ أَخْرَجَنِي وَلَمْ يَبْقَ لِي مَرْغُوبٌ فِيهِ، فَكَفَانِي صُحْبَةَ التَّأَسُّفِ عَلَىٰ مَا يَفُوتُ؛ لأَنَّ التَّخَلُّفَ مَعَ غَيْرِ الأَمْثَالِ عَذَابٌ، وإِنَّمَا هَوَّنَ فَقْدَانِي لِلسَّادَاتِ نَظَرِي إِلَىٰ الإِعَادَةِ بِعَيْنِ اليَقِينِ، وَثِقَتِي إِلَىٰ وَعْدِ المُبْدِئِ لَهُمْ عَلَىٰ تِلْكَ الأَشْكَالِ والعُلُومِ أَنْ يَقْنَعَ لَهُمْ مِنَ الوُجُودِ بِتِلْكَ الأَيَّامِ اليَسِيرَةِ، المَشُوبَةِ بِأَنْوَاعِ

(١) القَوَدُ - بِفَتْحَتَيْنِ - : القِصَاص. وَأَقَادَ السُّلْطَانُ القَاتِلَ بالقَتِيلِ: قَتَلَهُ بِهِ.

(٢) بَيْضَةُ البَلَدِ : بَيْضَةُ النَّعامِ الَّتِي يَتْرُكُهَا. وقَوْلُهم: فُلانٌ بَيْضَةُ البَلَدِ: هُوَ مِنَ الأَضْدَادِ، يَكُونُ مَدْحًا، ويَكُونُ ذَمًّا، فَإِذَا مُدِحَ الرَّجُلُ بِهِ، أُرِيدَ بِهِ: وَاحِدُ البَلَدِ وَسَيِّدُهُ الَّذِي يُجْتَمَعُ إِلَيْهِ، وَيُقْبَلُ قَوْلُهُ. وَقِيلَ: فَرْدٌ لَيْسَ أَحَدٌ مِثْلَهُ فِي شَرَفِهِ كَبَيْضَةِ البَلَدِ الَّتِي هِيَ تَرِيكَةٌ وَحْدَهَا، لَيْسَ مَعَهَا غَيْرُهَا وَإِذَا ذَمُّوهُ بِهِ أَرَادُوا: هُوَ مُنْفَرِدٌ لا نَاصِرَ لَهُ بِمَنْزِلَةِ بَيْضَةِ البَلَدِ الَّتِي تَبِيضُهَا النَّعَامَةُ، ثُمَّ تَتْرُكُهَا بِالفَلاةِ، فَلا تَحْضُنُهَا، فَتَبْقَىٰ تَرِيكَةً بالفَلاةِ.

(٣) «الذَّيْلُ عَلَىٰ طبقات الحَنَابِلَةِ (١/ ٣٥٨ - ٣٥٩).

التَّنْغِيصِ وَهُوَ المَالِكُ، ولا - واللهِ - أَقْنَعُ لَهُمْ إلاَّ بِضِيَافَةٍ تَجْمَعُهُمْ عَلَىٰ مَائِدَةٍ تَلِيقُ بِكَرَمِهِ، نَعِيمٌ بِلا ثُبُورٍ[١]، وَبَقَاءٌ بِلا مَوْتٍ، وَاجْتِمَاعٌ بِلا فُرْقَةٍ، وَلَذَّاتٌ بِغَيْرِ نُغْصَةٍ[٢].

السَّلامُ عَلَىٰ شَوَابِّ النِّسَاءِ

يُكْرَهُ السَّلامُ عَلَىٰ شَوَابِّ النِّسَاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْلُبُ جَوابَهُنَّ، وَسَمَاعَ أَصْوَاتِهِنَّ، وَعَسَاهُ يَجْلُبُ الْفِتْنَةَ، وَكَمْ مِنْ صَوْتٍ جَرَّ هَوًى وَعِشْقًا، وَلا بَأْسَ بِالسَّلامِ عَلَىٰ العَجَائِزِ والبَارِزاتِ[٣] لِعَدَمِ الفِتْنَةِ بِأَصْوَاتِهِنَّ[٤].

التَّغَافُلُ عَنْ بَعْضِ مَسَاوِي النَّاسِ

مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ التَّغَافُلُ عَنْ ظُهُورِ مَسَاوِي النَّاسِ، وَمَا يَبْدُو فِي غَفَلاتِهِمْ: مِنْ كَشْفِ عَوْرَةٍ، أو خُرُوجِ رِيحٍ لَهَا صَوْتٌ أَوْ رِيحٌ، وَمَنْ سَمِعَ ذَلِكَ، فَأَظْهَرَ

---

(١) الثُّبور: الهلاك والخُسْرَان.

(٢) «الذَّيلُ عَلَىٰ طبقات الحَنابلَة» (١/٣٦٢).

(٣) البَرْزَةُ مِنَ النِّسَاءِ - بالفتح - : الكَهْلَةُ الجَليلةُ الَّتي تَبْرُزُ للقَوْمِ، يجلسون إليها، ويتحدَّثون، وهي عفيفةٌ عاقلةٌ، مِنَ البُرُوزِ: وهو الظُّهُورُ والخُرُوجُ.

(٤) «فُصولُ الآداب ومكارم الأخلاق» (ص٤٥).

الطَّرَشَ[١]، أَوِ النَّوْمَ، أَوِ الغَفْلَةَ؛ لِيُزِيلَ خَجَلَ الفَاعِلِ - كَانَ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ[٢].

التَّدَخُّلُ في الأَسْرَارِ

يَنبَغِي للإِنْسَانِ أَلاَّ يَدْخُلَ في سِرِّ قَوْمٍ ولا حَدِيثٍ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِيهِ، ولا يَجُوزُ الاسْتِمَاعُ إِلَىٰ كَلامِ قَوْمٍ يَتَشَاوَرُونَ، وَمَنْ تَلَفَّتَ في حَدِيثِه، فَهُوَ كَالمُسْتَوْدِعِ[٣] لِحَدِيثِهِ، يَجِبُ حِفْظُهُ عَلَيْهِ؛ لأَنَّ تَلَفُّتَهُ يُعْطِي التَّلَفُّتَ والتَّفَزُّعَ[٤].

هلَكَ المُتَنَطِّعُونَ!

قَالَ لِي رَجُلٌ: أَنْغَمِسُ في المَاءِ مِرَارًا كَثِيرَةً، وَأَشُكُّ هَلْ صَحَّ لِي الْغُسْلُ أَمْ لا؟، فَمَا تَرَىٰ في ذَلِكَ؟.

فَقُلْتُ لَهُ: يَا شَيْخُ، اذْهَبْ فَقَدْ سَقَطَتْ عَنْكَ الصَّلاةُ. قَالَ: وَكَيْفَ؟!.

---

(١) الطَّرش: أَهْوَنُ الصَّمَم، وبابُهُ فَرِحَ، وتَطَارَشَ: تَصامَّ فَأَظْهَرَ الطَّرَشَ، أَيْ: عَدَم سَمَاعِ مَا حَدَثَ.

(٢) فُصُولُ الآداب (ص٤٨).

(٣) اسْتَوْدَعَهُ حَدِيثَه: اسْتَحْفَظَهُ إِيَّاهُ.

(٤) فُصُولُ في الآداب (ص٤٨).

قُلْتُ: لأنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قَال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَة: المَجْنُونِ حَتَّىٰ يُفِيقَ، والنَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، وَالصَّبِي حَتَّىٰ يَبْلُغَ»[١].

وَمَنْ يَنْغَمِسْ في المَاءِ مِرَارًا، وَيَشُكُّ هَلْ أَصَابَهُ المَاءُ أَمْ لا - فَهُوَ مَجْنُونٌ[٢].

وَصْفُ أَصْحَابِ الإِمَامِ أَحْمَدَ

هُمْ قَوْمٌ خُشُنٌ[٣]، تَقَلَّصَتْ أَخْلاقُهُمْ عَنِ الْمُخَالَطَةِ، وَغَلُظَتْ طِبَاعُهُمْ عَنِ الْمُدَاخَلَةِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الجِدُّ، وَقَلَّ عِنْدَهُمُ الْهَزْلُ، وَعَزَبَتْ[٤] نُفُوسُهُمْ عَنْ ذُلِّ الْمُرَاءَاةِ، وَفَزِعُوا عَنِ الآرَاءِ إِلَىٰ الرِّوَايَاتِ، وَتَمَسَّكُوا بِالظَّاهِرِ تَحَرُّجًا[٥] عَنِ التَّأْوِيلِ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، فَلَمْ يُدَقِّقُوا في العُلُومِ الْغَامِضَةِ، بَلْ دَقَّقُوا في الوَرَعِ[٦]، وَأَخَذُوا مَا ظَهَرَ مِنَ الْعُلُومِ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيهَا، مِنْ خَشْيَةِ بَارِيهَا، وَلَمْ أَحْفَظْ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ تَشْبِيهًا، إِنَّمَا غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشَّفَاعَةُ لإِيمَانِهِمْ بِظَوَاهِرِ الآيِ[٧] وَالأَخْبَارِ، مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلا إِنْكَارٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي لا

---

(١) صحيح، أخرجه أبو داودَ (٤٣٩٨)، وصحَّحَه الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٩٧) عَنْ عَائِشَةَ.

(٢) «إغاثةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٥٤).

(٣) خُشُنٌ - بضمَّتَيْنِ - : أقوياءُ أَشِدَّاءُ، جَمْعُ خَشِنٍ - بِزِنَةِ نَمِرٍ - .

(٤) عَزَبَتْ: غَابَتْ وَبَعُدَتْ، وبابُهُ دَخَلَ وَجَلَسَ.

(٥) تَحَرُّجًا: تَأَثُّمًا، أي تَجَنُّبًا لِلْحَرَجِ والإِثْمِ.

(٦) الْوَرَع - مُحَرَّكَةً - : التَّقْوَىٰ.

(٧) الآي: جَمْعُ آيَةٍ كَغَايٍ وَغَايَةٍ.

أَعْتَقِدُ في الإِسْلامِ طَائِفَةً مُحِقَّةً خَالِيَةً مِنَ الْبِدَعِ سِوَىٰ مَنْ سَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ، وَالسَّلامُ(١).

شَرُّ الطَّوائِفِ

مَا أَشْبَهَ أَنْ يَكُونَ وَاضِعُ الإِرْجَاءِ زِنْدِيقًا؛ فَإِنَّ صَلاحَ العَالَمِ بِإِثْبَاتِ الْوَعِيدِ وَاعْتِقَادِ الجَزَاءِ، فالْمُرْجِئَةُ(٢) لَمَّا لم يُمكنْهُمْ جَحْدُ الصَّانِعِ - لما فيه مِنْ نُفُورِ النَّاسِ وَمُخَالَفَةِ العَقْلِ - أَسْقَطُوا فَائِدَةَ الإِثْبَاتِ، وهِيَ الخَشْيَةُ والمُرَاقَبَةُ، وَهَدَّمُوا سِيَاسَةَ الشَّرْعِ؛ فَهُمْ شَرُّ طَائِفَةٍ عَلَىٰ الإِسْلامِ(٣).

رُعُونَةُ الطَّبْعِ

رَأَيْتُ فَقِيهًا خُرَاسَانِيًّا، عَلَيْهِ حَرِيرٌ وَخَوَاتِيمُ ذَهَبٍ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا؟.

---

(١) «الذَّيْلُ عَلَىٰ طَبَقَاتِ الحَنَابِلَةِ» (١/ ٣٣٤ - ٣٣٨).

(٢) المُرْجِئَة: من الإرجاء، وهُوَ التَّأخِيرُ، فالمُرْجِئَةُ يَقُولُون: إنَّ الإيمان لا يزيد ولا يَنْقُص؛ لأنَّ الأعْمَال لَيْسَتْ من الإيمان حتَّىٰ يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها، فَقَاعدتهم: لا يضرُّ مَعَ الإيمانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ، كما لا يَنْفَعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعَةٌ.

(٣) «تَلْبِيس إِبْلِيس» (٢/ ٤٩٥).

فقَالَ: خِلَعُ[١] السُّلْطَان، وكَمَدُ[٢] الأَعْدَاء.

فَقُلْتُ: بَلْ هُوَ شَمَاتَةُ[٣] الأَعْدَاءِ بِكَ، إِنْ كُنْتَ مُسْلِمًا؛ لأَنَّ إِبْلِيسَ عَدُوُّكَ، وإِذَا بَلَغَ مِنْكَ مَبْلَغًا، أَلْبَسَكَ مَا يُسْخِطُ الشَّرْعَ - فَقَدْ أَشْمَتَهُ بِنَفْسِكَ، وَهَلْ خِلَعُ السُّلْطَانِ سَابِقَةٌ لِنَهْيِ الرَّحْمَنِ؟!.

يَا مِسْكِينُ، خَلَعَ عَلَيْكَ السُّلْطَانُ، فَانْخَلَعْتَ بِهِ مِنَ الإِيمانِ، وقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْلَعَ عَنْكَ السُّلْطَانُ لِبَاسَ الفِسْقِ، ويُلْبِسَكَ لِبَاسَ التَّقْوَىٰ.

رَمَاكُمُ اللهُ بِخِزْيَةٍ[٤]؛ حَيْثُ هَوَّنْتُمْ أَمْرَهُ هَكَذَا!، لَيْتَكَ قُلْتَ: هَذِهِ رُعُونَاتُ الطَّبْعِ، الآنَ تَمَّتْ مِحْنَتُكَ؛ لأَنَّ عُذْرَكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ فَسَادِ بَاطِنِكَ[٥].

استِعْمَالُ القُرْآنِ في الأُمورِ الدُّنْيَوِيَّة

كَانَ أَبُو إِسْحَاقَ الْخرازُ صَالِحًا، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لَقَّنَنِي كِتَابَ اللهِ، وكَانَ مِنْ عَادَتِهِ الإِمْسَاكُ عَنِ الكَلامِ في رَمَضَانَ؛ فَكَانَ يُخَاطِبُ بِآيِ القُرْآنِ فِيما يَعْرِضُ لَهُ مِنَ الحَوَائِجِ، فَيَقُولُ في إِذْنِه: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المَائِدَة: ٢٣].

---

(١) خِلَع: جمعُ خِلْعَةٍ - بالكسر - ، وهي ما يُعْطيه الإنسانُ غَيْرَهُ من الثِّيَابِ مِنْحَةً.

(٢) الكَمَد: الحُزْنُ الشَّدِيدُ المكْتُومُ، وبابُهُ فَرِحَ.

(٣) الشَّمَاتَة - بالفتح - : الفَرَحُ ببليَّةِ العَدُوِّ وَحُزْنِه.

(٤) الخزية - مُثَلَّثَةً - : البَلِيَّة يُوقَعُ فيها.

(٥) «تلبيس إبليس» (٢/ ٧١٣).

ويَقُولُ لابْنِهِ عَشِيَّةَ الصَّوْمِ(١): ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾ [البقرة: ٦١].

آمِرًا لَهُ أَنْ يَشْتَرِي الْبَقْلَ. فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ نَزَلَ فِي تِبيانِ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ، وَلا يُسْتَعْمَلُ فِي أَغْرَاضٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وَمَا هَذَا إِلاَّ بِمَثَابَةِ صَدِّكَ السِّدْرَ(٢) والأُشْنَانَ(٣) فِي وَرَقِ الْمُصْحَفِ، أَوْ تَوَسُّدُكَ لَهُ(٤)، فَهَجَرَنِي، وَلَمْ يُصْغِ إِلَىٰ الْحُجَّةِ(٥).

تَرْقِيعُ الثِّيَابِ

دَخَلْتُ الحَمَّامَ يَوْمًا، فَرَأَيْتُ عَلَىٰ بَعْضِ أَوْتَادِ(٦) المَسْلَخِ(٧) جُبَّةً مَشْوزَكةً مُرَقَّعَةً بِفُوَطٍ(٨).

فَقُلْتُ لِلحَمَّامِيِّ: أَرَىٰ سَلخَ الحَيَّةِ، فَمَنْ دَاخِلٌ؟!(٩).

---

(١) عَشِيَّةَ الصَّوْمِ: أي آخِرِ نَهَارِهِ.

(٢) ضدَّكَ السِّدْرَ: أي جَمْعَك لَهُ.

(٣) الأُشْنَان - بالضَّمِّ وقَدْ يُكسر -: الحُرْضِ، شَجَرٌ يَنبتُ في الأَرْضِ الرَّمْلِيَّةِ، يُسْتَعْمَلُ هُوَ - أو رَمَادُهُ - في غَسْلِ الثِّيابِ والأَيْدي.

(٤) تَوَسَّدَ الشَّيْءَ: جَعَلَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ كَالوِسَادَةِ (أي: المِخَدَّةِ).

(٥) «تَلْبِيس إِبْلِيس» (٢/٨٩٩ - ٩٠٠).

(٦) الأوتاد: جمع وَتَدٍ - بالفتح، وبالتَّحريك، وككَتِفٍ -، وهو ما رُزَّ في الأَرْضِ أو الحَائِطِ مِنْ خَشَبٍ.

(٧) المسلخ: موضع السَّلْخِ، وهو كَشْطُ الجِلْدِ عَنْ صَاحِبِه.

(٨) الفُوط: جمعُ فُوطَةٍ - بالضَّمِّ -، وهي ثَوْبٌ من صُوفٍ، فَلَمْ يُحَلَّ بأَكْثَرَ.

(٩) لقد شُدِّدَ النَّكيرُ عَلَىٰ مَنْ يَفعلُ ذلك؛ لأَنَّ ترقيعَ الثِّيابِ لَيْسَ مِنْ لِبَاسِ السَّلَفِ، وإنَّما كانوا يُرَقِّعونَ =

فَذَكَرَ لِي بَعْضَ مَنْ يَتَصَفَّفُ للبَلاءِ حَوْشًا للأَمْوَالِ(١).

مِنْ حِيَلِ أَهْلِ الإلْحَاد

ضَنِيَتْ قُلُوبُ أَهْلِ الإلحَادِ؛ لانْتِشَارِ كَلِمَةِ الحَقِّ، وَثُبُوتِ الشَّرَائِعِ بَيْنَ الخَلْقِ، والامْتِثَالِ لأَوَامِرِها: كَابْنِ الريونديِّ(٢)، وَمَنْ شَاكَلَهُ: كَأَبِي العَلاءِ(٣)، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ لا يَرَوْنَ لِمَقَالَتِهِمْ نَبَاهَةً(٤) ولا أَثَرًا، بَلِ الجَوَامِعُ تَتَدَفَّقُ زِحَامًا، والأَذَانَاتُ تَمْلأُ أَسْمَاعَهُمْ بالتَّعْظِيمِ لِشَأْنِ النَّبيِّ - ﷺ - ، وَالإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ، وإِنْفَاقُ الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ في الحَجِّ مَعَ رُكُوبِ الأَخْطَارِ، وَمُعَانَاةِ الأَسْفَارِ، وَمُفَارَقَةِ الأَهْلِ وَالأَوْلادِ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَنْدَسُّ(٥) في أَهْلِ النَّقْلِ، فَيَضَعُ المَفَاسِدَ عَلَى الأَسَانِيدِ،

ضرورةً؛ ولأنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ ادِّعاءَ الفَقْرِ، وَقَدْ أُمِرَ الإِنْسَانُ أَنْ يُظْهِرَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ. انظر «تلبيس إبليس» (٣/١١٢٨). وما هكذا لباسُ الصَّحابَةِ، فَقَدْ قالَ الإمامُ ابنُ سيرين - رحمه اللهُ - كما في «تَلبيس إبليس» (٣/١٢٠٣): «كان المُهاجِرونَ والأَنصارُ يَلْبَسُونَ لِبَاسًا مُرْتَفِعًا، وقدِ اشْتَرَىٰ تَمِيمٌ الدَّاريُّ حُلَّةً بِألْفٍ، ولَكِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فيها».

(١) «تلبيس إبليس» (٣/١١٣٨).

(٢) هُوَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ إسحاقَ أبو الحسن الريونديُّ، أو ابْنُ الرَّاوَنْديِّ، ويُقَالُ: ابنُ الريونديِّ، زِنْديقٌ مُلْحِدٌ، كان أَوَّلاً مِنْ مُتَكلِّمي المُعتزلَةِ، ونُسِبَتْ إليه فرقةٌ منهم، هي (الرَّاوَنْدِيَّةُ)، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٩٨هـ.

(٣) هُوَ أَحمدُ بْنُ عبد اللهِ بْنِ سُلَيْمانَ، أبو العَلاءِ المَعَرِّيُّ، الشَّاعِرُ المُتَّهَمُ في نِحْلَتِهِ، وَقَدِ اتَّهَمَهُ العُلَماءُ بالزَّنْدَقَةِ والإلحادِ، ماتَ سنةَ ٤٤٩ هـ.

(٤) النَّباهةُ: الاشتهار، وقد نَبُهَ مِنْ بَابِ ظَرُفَ.

(٥) يَندس: يطعنُ.

وَيَضَعُ السِّيَرَ[١] والأَخْبَارَ، وبَعْضُهُمْ يَرْوِي مَا يُقَارِبُ المُعْجزَاتِ مِنْ ذِكْرِ خَوَاصٍّ في أَحْجَارٍ، وَخَوَارِقٍ للعادَاتِ في بَعْضِ البلادِ، وأَخْبَارٍ عَنِ الْغُيُوبِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الكَهَنَةِ[٢] والمُنَجِّمِينَ[٣]، وَيُبَالِغُ في تَقْرِيرِ ذَلِكَ، حَتَّىٰ قَالُوا: إِنَّ سَطِيحًا قَالَ في الخَبيءِ الَّذي خُبِّئَ لَهُ: حَبَّةُ بُرٍّ في إِحْلِيلِ مُهْرٍ.

والأَسْوَدُ[٤] كَانَ يَعِظُ، ويَقُولُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِه.

وَهَا هُنَا الْيَوْمَ مُعَزِّمُونَ[٥]، يُكَلِّمُونَ الجِنَّ الَّذي في باطِنِ المَجْنُونِ، فَيُكَلِّمُهم بِمَا كَانَ ويَكُونُ، وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِنَ الخُرَافَاتِ، فَمَنْ رَأَىٰ مِثْلَ هَذَا، قَالَ – لِقِلَّةِ

---

(١) الكَهَنَةُ: هم كما وَصَفَهُمُ الخَطَّابيُّ: «الكَهَنَةُ: قَوْمٌ لَهُمْ أَذْهَانٌ حَادَّةٌ، ونُفُوسٌ شِرِّيرَةٌ، وطِبَاعٌ نَارِيَّةٌ، فَأَلِفَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ؛ لما بينهُم مِنَ التَّناسُبِ في هَذِهِ الأُمُورِ ومُسَاعَدَتِهم بكُلِّ مَا تَصِلُ قُدْرَاتُهُمْ إِلَيْه، وكانتِ الكَهَانَةُ في الجَاهِلِيَّة فاشِيَةً، خُصُوصًا عِنْدَ العَرَبِ؛ لانقطاعِ النُّبُوَّةِ فيهم». فتح الباري (١٠/٢١٧).

(٢) المُنَجِّمون: هُمُ المُشْتَغِلونَ بالتَّنْجِيم، وهُوَ الاسْتِدْلالُ بالأَحْوَالِ الفَلَكِيَّةِ عَلَىٰ الحَوَادِثِ الأَرْضِيَّةِ، بِمَعْنَىٰ أَنَّ المُنَجِّمَ يَرْبِطُ مَا يَقَعُ في الأَرْضِ بالنُّجُومِ وبِحَرَكَاتِهَا، وطُلُوعِهَا وغُرُوبِهَا، وَاقْتِرَانِهَا وتَفَرُّقِهَا. انظر «مَعالم السُّنَن» (٤/٢٢٩).

(٣) سطيحٌ الكاهِنُ: هو رَبيعُ بْنُ ربيعةَ بْنِ مَسْعُودٍ المازِنِيُّ الأَزْدِيُّ، مِنْ أَهْلِ الجابيةِ عَلَىٰ مَشارِفِ الشَّامِ، كَانَتِ العَرَبُ تَحْتَكِمُ إِلَيْهِ، ماتَ بَعْدَ مَولِدِ النَّبِيِّ – ﷺ – بشَهْرٍ أَوْ أَقَلَّ منه، وسُمِّيَ سطيحًا؛ لأَنَّهُ لا عَظْمَ فيه سِوَىٰ رَأْسِه، فكَانَ أَبَدًا مُنْبَسِطًا مُنْسَطِحًا عَلَىٰ الأَرْضِ، لا يَقْدِرُ عَلَىٰ قِيَامٍ ولا قُعُودٍ، وكَانَ يُطْوَىٰ – كما يُطْوَىٰ الثَّوْبُ – مِنْ رِجْلَيْهِ إِلَىٰ عُنُقِه؛ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ بَنِي آدَمَ يُشْبِهُهُ!.

(٤) الأَسْوَدَ العَنْسيُّ: هُوَ عَيْهَلَةُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ العَنْسيُّ المَذْحَجِيُّ، أَسْلَمَ مَعَ أَهْلِ اليَمَنِ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَنِ ارْتَدَّ؛ قُتِلَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ – ﷺ – بِشَهْرٍ.

(٥) المُعَزِّمُونَ: هُمُ الَّذينَ يَسْتَعْمِلونَ العَزَائِمَ – أَي: الرُّقَىٰ الشَّيْطَانِيَّة – عَلَىٰ الجِنِّ والأَرْواحِ. قَالَ الرَّاغِبُ: «العزِيمةُ: تَعْوِيذٌ، كَأَنَّهُ تَصَوَّرَ أَنَّكَ قَدْ عَقَدتَ بها على الشَّيطانِ أَنْ يُمْضِيَ إِرادَتَهُ فيك».

عَقْلِهِ، وَقِلَّةِ تَلَمُّحِهِ لِقَصْدِ هؤُلاءِ المَلاحِدَةِ -: وَهَلْ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّبُوَّةُ إلاَّ مُقَارِبُ هَذَا؟!.

وَلَيْسَ قَوْلُ الْكَاهِنِ: حَبَّةُ بُرٍّ في إِحْلِيلِ مُهْرٍ - وَقَدْ أُخْفِيَتْ هَذَا الإِخْفَاءَ - بِأَكْثَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وَهَلْ بَقِيَ لِهَـذَا وَقْعٌ في الْقُلُوبِ، وهَذَا التَّـقْـوِيمُ يَنْطِقُ بِالمَنْعِ مِنَ الرُّكُـوبِ الْيَـوْمَ؟!، وَهَلْ تَرَكَ تَلَمُّحَ هَذَا إلاَّ الغَبيُّ؟!، وَاللهِ، مَا قَصَدُوا بِذَلِكَ إلاَّ قَصْدًا ظَاهِرًا، وَلَمَّحُوا لَمْحًا جَلِيًّا، فَقَالُوا: تَعَالَوْا نُكْثِرِ الْجَوْلاتِ عَلَىٰ البِلادِ، وَالأَشْخَاصِ، والنُّجُومِ، والخَوَاصِّ، وَلا يَخْلُو - مَعَ الكَثْرَةِ مِنْ مُصَادَفَةِ الاتِّفَاقِ لِوَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ، فَيُصَدِّقُ بِهَا الكُلُّ، وَيَبْطُلُ أَنْ يَكُونَ مَا جَاءَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ خَرْقًا لِلْعَادَاتِ، ثُمَّ دَسَّ قَوْمٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ فُلانًا أَهْوَىٰ بِإِنَائِهِ إِلَىٰ دَجْلَةَ[١]، فَامْتَلأَ ذَهَبًا، فَصَارَ هَذَا كَالْعَادَةِ بِطَرِيقِ الْكَرَامَاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَبِطَرِيقِ العَادَاتِ في حَقِّ الْمُنَجِّمِينَ، وَبِطَرِيقِ الخَوَاصِّ في حَقِّ الطَّبَائِعِيِّينَ، وبِطَرِيقِ الْكَهَانَةِ فِي حَقِّ الْمُعَزِّمِينَ والعَرَّافِينَ[٢]، فَأَيُّ حُكْمٍ بَقِيَ لِقَوْلِ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلامُ - : ﴿ وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آلَ عمران: ٤٩]؟!.

---

(١) دَجْلَة - بالفتح والكَسْرِ - : نَهْرُ بَغْدَادَ.

(٢) العَرَّاف: الَّذي يَدَّعي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَىٰ المَسْرُوقِ، ومكانِ الضَّالَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا نَقَلَ ذَلِكَ صَاحِبُ فَتح المجيد عن البغويِّ. ونَقَلَ عن شيخ الإسلامِ قَوْلَهُ: «العَرَّافُ: اسمٌ للكاهِنِ، والمُنَجِّمِ، والرَّمَّالِ - أي: الَّذي يَسْتَدِلُّ بِأَشْكَالِ الرَّمْلِ عَلَىٰ أَحْوَالِ المَسْأَلَةِ حِينَ السُّؤَالِ - ونَحْوِهِم مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ». فتح المجيد (ص٢٣٨).

وأَيُّ خَرْقٍ بَقِيَ لِلْعَادَاتِ؟!، وَهَلِ العَادَاتُ إلاَّ اسْتِمْرَارُ الْوُجُودِ وكَثْرَةُ الحُصُولِ، فَإِذَا نَبَّهَهُمُ الْعَاقِلُ الْمُتَدَيِّنُ علَىٰ مَا في هَذَا مِنَ الفَسَادِ، قَالَ الصُّوفِيُّ: أَتُنْكِرُ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ؟!.

وَقَالَ أَهْلُ الخَوَاصِّ: أَتُنْكِرُ المِغْنَاطِيسَ الَّذي يَجْذِبُ الْحَدِيدَ، والنَّعامَةَ الَّتي تَبْلَعُ النَّارَ[١]؟!.

فَسَكَتَ عَنْ جَحْدِ مَا لَمْ يَكُنْ لأَجْلِ مَا كَانَ، فَوَيْلٌ لِلْمُحِقِّ مَعَهُمْ!.

هَذَا، والباطنيَّةُ مِنْ جَانِبٍ، والْمُنَجِّمُونَ مِنْ جَانِبٍ مَعَ أَرْبَابِ المَنَاصِبِ، لا يَعْقِدُونَ ولا يَحُلُّونَ إلاَّ بِقَوْلِهِمْ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَحْفَظُ هَذِهِ المِلَّةَ، وَيُعْلِي كَلِمَتَهَا، حَتَّىٰ إِنَّ كُلَّ الطَّوَائِفِ تَحْتَ قَهْرِهَا إِقْبَالاً مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَىٰ حِرَاسَةِ النُّبُوَّاتِ، وقَمْعًا لأَهْلِ المِحَالِ[٢]![٣].

أَدَبُ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ

مِنْ أَدَبِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ أَنْ تَخَافَ مِنْ عَدْلِه فِيكَ؛ فَإِنْ خِفْتَ الحَيْفَ[٤]،

---

(١) انظر كتاب الحيوان للجاحظ (١ / ١٤٧)، وحياة الحيوان للدميريّ (٢ / ٣٦٣).

(٢) أهل المِحَال - بالكسر - : أهل الكَيْدِ والحِيلِ، والجِدَالِ والعَداوَةِ.

(٣) تَلْبيس إبْليسَ (٢ / ٤٢٠ - ٤٢٤).

(٤) الحَيْف: الجَوْرُ والظُّلْم، وبابُهُ بَاعَ.

فَبِئْسَ الْخَوْفُ!، وَإِيَّاكَ أَنْ تَخَافَ مِمَّا وَرَاءَ العَدْلِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ تَجْوِيرٌ للهِ(١)، وَلِهَذَا لَوْ فَصُحَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا تَخَافُ إِلاَّ مِمَّا وَرَاءَ عَدْلِ اللهِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنِّي أَخَافُ الحَيْفَ.

وَالخَوْفُ مِنْ غَيْرِ عَدْلِهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ هُوَ سُوءُ الظَّنِّ بِهِ(٢).

أَشَدُّ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ

مِنْ أَعْظَمِ مَنَافِعِ الإِسْلامِ وَآكَدِ قَوَاعِدِ الأَدْيَانِ: الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، وَالتَّنَاصُحُ، فَهَذَا أَشَقُّ مَا يَحْمِلُهُ المُكَلَّفُ؛ لأَنَّهُ مَقَامُ الرُّسُلِ؛ حَيْثُ يَنقِلُ صَاحِبُهُ عَنِ الطِّبَاعِ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ نُفُوسُ أَهْلِ اللَّذَّاتِ وَتَمْقُتُهُ أَهْلُ الخَلاعَةِ، وَهُوَ إِحْيَاءٌ لِلسُّنَّةِ وَإِمَاتَةٌ لِلْبِدْعَةِ(٣).

كَشْفُ وَجْهِ المَرْأَةِ المُحْرِمَةِ

نَدَبَ الشَّرْعُ إِلَىٰ النَّظَرِ إِلَىٰ المَرْأَةِ قَبْلَ النِّكَاحِ، وَأَجَازَ لِلشُّهُودِ النَّظَرَ، فَلَيْسَ

(١) جَوَّرَهُ تَجْوِيراً: نَسَبَهُ إِلَىٰ الجَوْرِ، وهُوَ الحَيْفُ والظُّلْمُ.

(٢) «الفنون» (٢/٧٤٣).

(٣) «غذاء الألباب» للسفاريني (١/٢١٣).

بِبِدْعٍ أن يَأْمُرَهَا بالْكَشْفِ، وَيَأْمُرَ الرِّجَالَ بالْغَضِّ؛ لِيَكُونَ أَعْظَمَ للابْتِلاءِ، كَمَا قَرَّبَ الصَّيْدَ إِلَىٰ الأَيْدِي في الإِحْرَامِ وَنَهَىٰ عَنْهُ»[١].

بَرَكَاتُ الإِخْلاصِ

شَاهَدْتُ شَيْخَنَا وَمُعَلِّمَنَا الْمُنَاظَرَةَ: أَبَا إِسْحَاقَ الْفَيْرُوزأبَادِيَّ[٢] لا يُخْرِجُ شَيْئًا إِلَىٰ فَقِيرًا إِلاَّ أَحْضَرَ النِّيَّةَ، ولا يَتَكَلَّمُ في مَسْأَلَةٍ إِلاَّ قَدَّمَ الاسْتِعَانَةَ بِاللهِ، وإِخْلاصَ الْقَصْدِ فِي نُصْرَةِ الحَقِّ دُونَ التَّزَيُّنِ والتَّحسينِ لِلْخَلْقِ، وَلا صَنَّفَ مَسْأَلَةً إِلاَّ بَعْدَ أَنْ صَلَّىٰ رَكَعَاتٍ، فلا جَرَمَ شَاعَ اسْمُهُ وَاشْتَهَرَتْ تَصَانِيفُهُ شَرْقًا وَغَرْبًا، هَذِهِ بَرَكَاتُ الإِخْلاصِ[٣].

تَقْبِيلُ يَدِ السُّلْطَانِ

عُوتِبَ ابْنُ عَقِيلٍ في تَقْبِيلِ يَدِ السُّلْطَانِ حِينَ صَافَحَهُ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ وَالِدي فَعَلَ ذَلِكَ فَقَبَّلْتُ يَدَهُ أَكَانَ خَطأً أَوْ وَاقِعًا مَوْقِعَهُ؟.

---

(١) «بَدَائِعِ الفَوَائِدِ» (٣/١٠٧٣).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ عَليِّ بنِ يوسُف الفيروزأبادي الشيرازي الشَّافِعِيّ، صاحبُ اللمع ت (٤٧٦هـ). «السِّيَر» (١٨/٤٥٢ – ٤٦٤).

(٣) «بدائع الفوائد» (٣/١١٢٢).

قَالُوا: بَلَىٰ. قَالَ: فالأَبُ يَرُبُّ وَلَدَهُ مَرَبَّةً خَاصَّةً، والسُّلْطَانُ يَرُبُّ العَالِمَ مَرَبَّةً عَامَّةً؛ فَهُوَ بالإِكْرَامِ أَوْلَىٰ، ثُمَّ قَالَ: وَلِلْحَالِ الحَاضِرَةِ حُكْمُ مَنْ لابَسَهَا، وكَيْفَ يُطْلَبُ مِنَ الْمُبْتَلَىٰ بِحَالٍ مَا يُطْلَبُ مِنَ الخَالِي عَنْها[1]؟!.

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١١٢٣).

فهرس



فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠١٩٠٠٠٠٣٨٠

من إصداراتنا
لأبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

* فن الحوار.
* التاج المفقود.
* طريقنا للقلوب.
* نعمة الأخوة.
* ملك القلوب.
* منتقى الأشعار.
* تسهيل البلاغة.
* منتقى الفوائد ١ / ٢.
* فتنة النظر.
* صيد الخواطر.
* كيف تنال محبة الله.
* جفاف المشاعر.
* الأخلاق بين الطبع والتطبع.
* الخطاب البليغ في جماعة التبليغ.
* الصحيح من الأثر في خطب المنبر.
* حادي الصديق إلى بيت الله العتيق.
* المنتقى من الأحاديث القدسية الصحيحة.
* نزهة الأحباب شرح منظومة الآداب.
* تحفة الخطيب (أصول الخطابة - آدابها - صفات الخطيب).

التوزيع في القاهرة: العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر

شارع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٥١٢٠٦٢١ / ٠٠٢٠٢

دار كم المتميزة



دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع

١٧، ١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية

تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٠٢٢٢٠٠٢ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail: dar_aleman@hotmail.com